alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الاسكندرية

قصة

بلد المحبوب

يوسف القعيد

بلــــد المحبــــــــوب

alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الأسكندرية

يوسف القعيد

-١-

حجزوني ساعات طويلة في المطار، بدأت المتاعب عندما نظر الضابط الشاب الجالس في فاترينة زجاجية صغيرة نظرتين: نظرة في وجهي، ونظرة أخرى إلى صورتي التي في الجواز. ثم قرّب صفحة جواز سفري المدون بها تاريخ ميلادي من عينيه.

حجز الضابط الشاب جواز سفري بين يديه، وبقي معه وقتاً أكثر من الوقت الذي استغرقه أي جواز آخر معه. تشاغلت بالنظر إلى الآخرين، الجالسين في فترينات أخرى زجاجية. كان الناس يمرون بسرعة من أمامهم.

تمنيت لو أنني وقفت في طابور آخر، غير هذا الطابور، وأمام ضابط آخر، غير هذا الضابط الشاب، الذي بقي جوازي بين يديه طويلا. كأن الزمن جاء إلى هذه اللحظة وتوقف. وفي صمت اللحظات الممطوطة، كنت أعطي أذني للأصوات من حولي. البعض يرطن بلغات البلاد

البعيدة والبعض يتكلم لغة بلادي. وما أكثر أبناء البلد العائدين الذين يطل الشوق حتى من أحرف كلماتهم.

وعندما بدأ الواقفون ورائي في الطابور يتذمرون، أخرج الضابط الشاب، بهدوء، الجواز من غلافه الجلدي الذي كنت أضعه فيه. كان الغلاف أخضر، مكتوبا عليه بماء الذهب عبارة:"الجمهورية العربية المتحدة". كنت أحتفظ به وأصر عليه، رغم قدمه وتباعد زمانه.

طلب مني الضابط الانتظار، ونادى على عسكري وأعطاه الجواز وقال له كلمات لم أسمعها، لأنه كان يفصل بيني وبينهما حاجز من الزجاج. جلست على مقعد خشبي جامدا، آلمني الجلوس عليه، فقمت محاولا الحركة. ولكن الزحام وتوتر لحظة الوصول إلى الوطن ضايقاني، أسندت ظهري المتعب إلى سور حديدي، مدبب وجامد، أوجعني السور في ظهري. كانت الأرض مغطاة ببلاط جامد. وكنت أشعر به صلباً رغم الحذاء الذي في قدمي.

كان كل ركاب الطائرة قد عبروا الحاجز الذي يفصل منطقة الجوازات إلى المكان الذي ننتظر فيه الحقائب. ما عدا

ثلاثة. اثنان وأنا. اقترب مني واحد منهما، وقبل أن يسألني، قلت له:

- يوجد ألف سبب لمروري دون متاعب الآن.

رد علي:

- وأيضاً يوجد ألف سبب لحجـزك ومنعـك مـن المرور.

كنا نذهب بالتناوب لسؤال الضـابط، الـذي انتهـت ورديته، وترك مكانه لضابط آخـر، خـلال الوقـت الـذي قضيناه. الضابط الجديد، مثل الضابط الذي سبقه في الوردية، كان شابا، وكان وجهه خاليا من أي تعبير. وكان يطلب، من كل منا، بنفس الكلمات تقريبا، وبصورة آلية، الانتظار لحين حضور الجوازات.

جاء جوازان، كان جـوازي واحـدا منهمـا، بعـد ساعات. وعلمت من العسكري، الذي كانت كلماته على شكل جمل قصيرة، وينهي كل جملة بكلمتي: أي خدمة. إن السبب في إرسال جوازي إلى المعمل الجنائي أن صورتي التي في الجواز تعطي انطباعا بسن أكبر من تاريخ الميلاد المدون في الجواز. ولأن الجواز صادر مـن قنصـلية مصـرية فـي

الخارج، ولأن كافة الأختام المدونة على الجواز لعواصم أوروبية ليست من بينها القاهرة. مما جعل الشك يتسرب إلى نفس الضابط.

أخذت الجواز وخرجت. ساعات عصيبة مرت عليّ وأنا في انتظاره. في المسافة من المطار إلى القاهرة. كدت أشرب المرئيات، أنظر وأسمع وألتهم كل ما أمامي. بدا لي إيقاع الحياة أسرع مما كان، وبدا لي السائق وكأن كل همه هو أن يوصلني بأسرع ما يمكن حتى يعود مرة أخرى.

كانت القاهرة، مدينتي التي سافرت منها وهي معي، رحلت ولم أرحل، سافرت ولم أسافر، دارت بداخلي كلمة "وداعاً" ولكني لم أنطق بها. حملتها بداخلي. وفي سنوات الحل والترحال لا يمكن لأي منا أن يستبدل مدينته بمدينة أخرى. قد نتجول في المدن، وننام على الأرصفة، ونتذوق المرئيات في النهارات المضيئة، ونشم رائحة عرقنا في الغرف التي تشهد لحظات نومنا. وتتعدد هذه الغرف، تصبح أكثر من أن يحصيها العدّ. ومع هذا تظل مدينة الإنسان منا، المدينة التي شهدت الطفولة والصبا والشباب هي مدينته الأصلية. كل المدن الأخرى لا تتعدى أن تكون مدن عبور.

يأتي إليها الإنسان من مدينة ويتركها إلى مدينة. ولكن تبقى القاهرة هي المدينة التي ترحل مع الإنسان.

وبدلاً من الترحيب بي، سألني سائق سيارة الأجرة، الذي كان يسابق الريح، إن كانت معي دولارات أرغب في تغييرها أو سجائر أنوي بيعها، أو زجاجة ويسكي لا أحب شرابه، قال لي: إن هديته التي سيأخذها مني أهم عنده من أجر السيارة، فالأجر يذهب إلى شركة، تملكها "عظمة كبيرة". هكذا قال. ولكن هديته هي التي سيعود بها إلى بيته وزوجته وأولاده آخر الليل.

بدلاً من الرد على طلباته أعطيته العنوان بالتفصيل، كنت مشغولا بالمقارنة بين القاهرة التي ودعتها منذ سنوات، والقاهرة التي أعود إليها الآن. كنت أبحث عن رعشات الحنين الغامض الذي أصابني منذ أن بدأت أضع سنوات الغربة والترحال في حقائب السفر.

ها هي القاهرة أخيرا، القاهرة التي يقولون عنها مصر ومصر التي هي أم الدنيا. أسماء الشوارع تغيرت. مبان خرجت إلى الوجود وأخرى اختفت ومعالم تاهت. وأخرى تحاول فرض نفسها. ميادين جديدة، زحام البشر،

الكل يلهث ويجري. لم تكن مصر هكذا أبدا عندما سافرت منها. من قال إن الأوطان تبقى على حالها، من قال؟

كنت أتمنى لو أن السائق يحدثني، يقول لي: هذا شارع كذا، وذلك هو الحي الفلاني، حتى أحاول جمع الشتات الموجود بداخلي مع بقايا الذكريات القديمة وما عرفته عن الوطن في سنوات الغربة. وأبدأ رحلة العودة إلى الديار، ولكنه كان مشغولا بالحديث عن الزبائن الكرماء الذين ركبوا معه والزبائن البخلاء، الذين أوقعه فيهم قلة بخته وسوء حظه. وأوصلهم إلى بيوتهم التي يطل منها البخل.

كانت كل الحكايات تنتهي بطريقة واحدة، الزبائن الكرماء وجدوا الأهل في انتظارهم. من ترك زوجته حاملاً عاد ليجد ابنه يمشي. ومن ترك أمه مريضة رجع ليكتشف أنها سليمة. أما الزبائن البخلاء، منهم من عاد ليبحث عن بيته فلا يجده. اختفى من الوجود. ومن عاد ليجد أن زوجته تزوجت بآخر وأمه ماتت ووالده أصابه الجنون وشقيقه ذهب إلى الحرب ولم يعد، وابنه سافر إلى بلاد العرب، وهناك ذاب في صحراء التيه أو ضاع في الربع الخالي ولم يعد منه لا حس ولا خبر.

قلت لنفسي، إن حكايات الرجل فيها تهديد خفي لي. عليّ أن أفكر من الآن في الهدية التي سأقدمها له، والبقشيش الذي سأتركه في يده، غير الأجرة التي تذهب لصاحبة الشركة التي هي عظمة من عظام البلد الكبيرة الآن.

عدت إلى مصر بعد سنوات من الاغتراب، رجعت إليها من الخارج، من البلاد التي يغتسل أهلها من داخلهم بالخمر، يسكنون بيوتا تناطح السحاب وتغوص في قلب السماء. تمنع نور الشمس نهاراً وضوء القمر ليلا. هذا إن كان هناك قمر أصلا، وتحول دون الهواء في كل الأحوال وتقدم للرئتين بدلا منه هواء صناعيا.

بعد مدخل المدينة، وصلت إلى الشوارع التي كنت أحبها قبل سفري الشجر على الجانبين، الشوارع الواسعة المغسولة التي تلمع طوال النهار وتهمس لنا بأعز الأسرار في الليل.

نظرت إلى الشجر، اختفت خضرته القديمة وأصبحت أوراقه رصاصية اللون والشارع أصبح ضيقا عن الأول، ونظافته القديمة لم يعد لها وجود. قلت لنفسي، إن شارعي استبيح ولن يهمس لي بالأسرار لا في الليل ولا في النهار.

أصبحنا جزءاً من عناقيد السيارات، توقفنا طويلا في إشارات، وعشت حالة من الإرهاق والتعب. ونـــزل العـــرق غزيرا ورأيت الغبار يملأ الفراغ وشاهدته بعيني المجردة من خلال آخر أضواء الشمس التي كانت تميل للغروب.

شاهدت أحياء راقيـــة، فـــيللات وعمـــارات عاليـــة وشوارع مرشوشة بالعطر، وخلفها مباشرة مدن من الصفيح وأطفال من الغبار ونساء من الوحل وبشر يعيشـــون وســـط أكوام من القمامة.

تكلمت لأول مرة، طلبت من السائق، أن يوصـــلني إلى البيت مروراً بالنيل. تمنيت لو أنني ألقيت نظـــرة علـــى مياهه في الوقت الذي يفصل بين النهار الذي يمضي والليـــل الآتي. في تلك اللحظة من الصعب معرفة أين ينتهي النهـــار وأين يبدأ الليل.

الكون كله رمادي اللون، وقطرات الظلام بدأت فـــي النزول والليل الغويط يطلع من الحارات ويطل من الشوارع، وأنوار القاهرة يتأكد وجودها في كل لحظة تمر. والسائق رد قائلاً: إن له خط سير مرسوم بمعرفة الشركة مالكة السيارة. أخرج أوراقاً من تابلوه السيارة. وبدأ يتحدث عـــن تحقيـــق

رغبتي، والبنزين الزائد والمخالفة وإمكانية ضبطه والعقاب الذي سيوقع عليه.

خُيِّلَ إلي أن الرجل استبدل قلبه بجنيه من الذهب الخالص، وأن هذا القلب الذهبي لا يدفع إلى الجسم بالدم ولكن بالقروش والجنيهات. تذكرت عملة بلادي، أخرجت المبلغ الذي حولته ورحت أنظر إلى الأوراق وقطع العملة الصغيرة، كم تبدو الأوراق صغيرة، صغيرة، إذا ما قارنتها بالأوراق القديمة. كانت خضراء وزرقاء وها هي بنية فاتحة. والقروش أصبحت صفراء وصغيرة، مثل حبة الترمس، تكاد أن تتوه من اليد، ولم يعد لها الرنين القديم.

رحت أتخيل شكل المفاجأة على من في البيت. عدت دون أن أرسل رسالة لكي أخبر أحداً بعودتي. بدأت أرسم شكل البيت من الخيال. الميدان والشارع والمنزل وسلمه الداخلي.

سألت نفسي: كيف تبدو لحظة اللقاء على وجوه من في البيت؟ أمي وأبي وأخوتي. تسلل إليّ نفس الخاطر الغريب، من سأقابله منهم الآن ومن قد لا أقابله، من رحل؟

ومن سافر؟ ومن مات؟ سرى دبيب النمل في عروقي، وأصابت أطرافي برودة مفاجئة.

وصلنا إلى النيل، بعد أن أفهمت السائق أنني سأكرمه، قال لي وهو يتجه ناحيةِ النيل، إنني ابن بلد أصيل. طلبت منه أن يتوقف قليلا. نزلت، كنت أتمنى أن أغمس يدي في مياهه. ولكن المياه التي كانت تصل إلى الطريق في زماني القديم، أصبحت تجري الآن في قاعه من تحت. سألت نفسي: من خنق النيل هكذا؟ ذكرته بوعده لي. قبل العودة، حلمت به في ديار الغربة، جاءني في الليل. شربت من مياهه وعمت فيه.

قال لي النيل في المنام، إن عدت إلى البلاد سأفيض، ويكون الفيضان الأول منذ سنوات طويلة. وقال لي زملاء الغربة ورفاق الحلِّ والترحال إن فيضان النيل، علاوة على أنه معجزة مستحيلة الحدوث الآن. فهو سيغسل الوادي كله.

همست للنيل، ذكرته بوعده لي، لم أكمل همساتي، لأن السائق كان يستعجلني، كان يشير إلى ساعته وإلى الليل القادم وإلى باقي الطريق. عدت إليه مسرعاً، قال لي إن

وراءه عددا من النقلات لابد وأن يقوم بها يومياً. وقال أيضاً إنه يحصل على عمولة عن كل دورة.

لولا وجود العنوان المكتوب الذي كان معي لما تعرفت على بيتنا. الشارع أصبح حفرا ومطبات، واجهات البيوت تحولت إلى محلات، والجراج الذي كان هنا أصبح دكاناً فخماً مضاء تنبعث منه موسيقى صاخبة. وحدائق البيوت القديمة، تلك المساحات التي كانت تهمس بالصمت والهدوء أصبحت ورشاً للسيارات والنجارين وعمال البويا.

فشلت عيناي في التعرف على ملامح الحي القديم، فلجأت إلى العنوان المكتوب. نظر إليّ السائق بشك أن أكون أصلا من هنا. وأنني عائد إلى بلدي وأهلي. سألنا الناس عن العنوان. لاحظت أن الكلمات لا توصل الناس ببعضهم. هناك من لم يسمعني ولم يرد. وهناك من سمع صوتي وأنا أسأله ومع هذا لم تصله كلماتي.

أخيراً، تمكنت من العثور على شخص، وقف معي، وكنت قد نزلت من السيارة، بعد أن نفد صبري، وبلغ ضيق السائق مداه. سألت عن العنوان فدلني عليه، اكتشفت أنني مررت أمام بيتنا أكثر من مرة. ولكن معالمه تاهت تماماً.

مدخل البيت أصبح كشكاً للبواب، يبيع فيه البيرة والسجائر والبسكويت، والسور الحديدي المدبب الجميل، والذي كانت تقف وراءه أشجار دقن الباشا والياسمين اختفى والأشجار اقتلعت. وعلى الجانبين محلات كثيرة أسماؤها غريبة، وأرض الشارع يغطيها التراب بدلاً من ورق الأشجار وزهور دقن الباشا وفصوص الياسمين الأبيض.

أغمضت عيني، حاولت الرحيل إلى الزمن الذي مضى أحسست أنني نجحت قليلاً في استنشاق روائح الزمن القديم. كانت تبدو هذه الروائح وكأنها مازالت معلقة في الهواء. تخيلت أنني أدوس على الأرض فأسمع تكسر الأوراق الجافة.

فتحت عيني على صوت السيارة وحديث السائق، كانت الأرض مغطاة بالتراب والطوب الذي اختلط بمياه، عرفت فيما بعد، أن بعضها من مياه المجارى، وأن البعض الآخر من مياه الشرب وأن الأمور اختلطت ببعضها.

عدت للسائق، كنت أحاول أن أبدو سعيداً. حاولت إخراجه من حالة الضيق الدائم التي أصبحت وكأنها جزء من ملامح وجهه.

قلت له بصوت عال:

- وجت بيتنا.

قال لي، وهو في منتصف المسافة بين الفرح والاستمرار في الضيق:

- ألف مبروك.

ونحن ننزل الحقائب من فوق السيارة، لم يتجمع أطفال الشارع حولنا، تطل من أعينهم الدهشة. وقد تحولت وجوههم إلى علامات استفهام بريئة وساذجة. كما كان يحدث في أيامنا. لم يتقدم أحد لمساعدتي ومعاونتي. ولم يعرض الآخرون خدماتهم عليّ. والبواب الذي كان جالساً بجوار ثلاجة حديثة، في جانبها لمبة مضاءة باللون الأحمر، لم يتحرك من مكانه. لم يخف إلى نجدتي أو سؤالي أو حتى مساعدتي. وعندما اقتربت منه، اكتشفت أنه ليس البواب القديم، شخص آخر غيره. وقفت أحاسب سائق السيارة، تذكرت أنه في المطار توجد لوحة في المكان الذي كانت تقف فيه السيارة. فيها الأسعار حسب مناطق مصر كلها. تذكرت أن المنطقة التي يقع فيها بيتنا أجرتها ستة جنيهات مصرية. أخرجت له المبلغ فنظر إليّ في دهشة:

- معك جنيهات؟!

هززت رأسي، قال لنفسه:

- كلهم يدفعون بالدولار.

ظلت يدي معلقة في الهواء، أخذ المبلغ وعده وأعاده إلي. فرد أصابع يديه أمام وجهي. أعادها إليه. ثم فردها أمام وجهي مرة أخرى. كادت أصابع يديه أن تلامس زجاج النظارة. ولم أكن قد فهمت ما يريده.

قال لي:

- تدفع بريزتين.

تصورت أن الرجل لا يفهم في الحساب. ولكنه أفهمني أن البريزة تعني عشرة جنيهات، وأن ذلك كود الكلام في هذه الأيام. وأن منطوق الأرقام قد تبدل. قال إن الديك الرومي يعني ديشيليون وأن الأرنب يعني مليون والباكو يعني ألف والأستك مائة. والبريزة عشرة جنيهات. والشلن خمسة جنيهات.

تناقشنا طويلاً، والسائق الذي كان يبدو وكأنه في حرب مع الوقت، لم يصبح مستعجلاً وكان مستعداً للنقاش من الآن وحتى صباح الغد.

واجهته بلوحة الأسعار التي في موقف المطار. واعترف هو بوجود اللوحة والأرقام التي بها. ولكنه قال: إنه لم يسر في طريق مستقيم، وإنه دخل بي الكثير من الشوارع الجانبية، كما أنه ذهب بي إلى النيل وكل ذلك بعيد عن التوصيلة الأساسية.

لم يكن أمامي سوى حلين، إما أن أدفع له ما يطلبه، أو أن أذهب معه إلى قسم الشرطة، ولأنني كنت متعباً، ولأنني كنت في غاية الشوق لرؤية أهلي، ولأنني لم أحب أن يكون أول مكان أدخل إليه، بعد العودة إلى أحضان الوطن هو قسم الشرطة، فقد دفعت له العشرين جنيهاً.

ظهرت علامات النصر على ملامح وجهه وهو يعد الجنيهات العشرين. ثم ذكرني أنه سألني إن كانت معي دولارات أرغب في تغييرها. وقبل أن أجيبه بالنفي سألت نفسي: ولِمَ الدولارات بالذات؟! ألا تعني العملة الأخرى لهم سوى الدولارات؟ ألا يعرفون أن العالم فيه وفيه وفيه من كل العملات الأجنبية الغريبة؟

انتقل السائق إلى الطلب الثاني: خرطوشة السجائر وزجاجة الويسكي. قال إنني وعدت بلساني ووعد الحر دين عليه، والرجل الحقيقي في زماننا هو من يربط من لسانه.

قلت له إنني لم أعد بشيء. كنت صامتاً طوال الطريق. قال متضاحكاً لأول مرة. وقد انفردت ملامح وجهه الكئيبة: إن السكوت علامة الرضا. قلت له إنني لم أكن ساكتاً ولكني كنت أتأمل. ثم إنني معي سجائر ومعي ويسكي ولكن – وأشرت إلى أعلى البيت – يوجد طابور طويل من الأهل والأقارب والأصهار والأصدقاء، في انتظار ما عدت به من الهدايا:

– إنها أكثر من عشر سنوات غربة.

ضحك الرجل:

– عشر سنوات وستجدهم.

استفهمت منه فأكمل:

– عشم إبليس في الجنة.

مساومات وكلمات وأخذ وعطاء، وفي النهاية حصل الرجل على خرطوشة سجائر. تركني لكي ينصرف بالسيارة. اتجهت إلى حيث يجلس أمام مقود السيارة وطلبت

منه إيصالاً بالمبلغ. أضاء نور السيارة الداخلي. ومد يده، سحب دفتراً للإيصالات وقلماً. وكتب الإيصال بسرعة غريبة ونزعه بعصبية من الدفتر وسلمه لي.

وقبل أن أقرأ كلمة واحدة من الإيصال، كانت السيارة قد طارت من أمامي وانطلقت بسرعة مذهلة مرة واحدة.

لم أتمكن من قراءة الإيصال، لأن المياه التي طرطشتها السيارة عند تحركها بللت حذائي وملابسي ووصلت إلى حقائبي، التي كانت فوق أرض الشارع.

حملت حقائبي إلى مدخل البيت وتعبت حتى وجدت مكانا أضعها فيه.

ها هو بيتنا، بيت الزمان القديم، وقفت أمام البيت، استدرت في وقفتي. نظرت إلى البيت المقابل مباشرة، سرى النمل في عروقي. كنت متعباً ومرهقاً ومع هذا حدثت لي حالة من الراحة والاسترخاء.

همست لنفسي:

– بيت محبوبتي.

ولكني عندما دققت النظر في بيت المحبوبة، لم أجد الشرفة القديمة ولا حبال الغسيل ولا الزهور المعلقة في سور الشرفة.

في الزمان القديم، كان على يمين الشرفة نافذة، شيشها أخضر اللون، وعلى يسارها نافذة أخرى، خضراء اللون أيضاً. وما بين النافذتين الشرفة، التي كان يتبدى منها وجه محبوبتي كطاقة من النور.

نظرت، فوجدت أنه أصبح مكان الشرفة والنافذة التي تطل على ناحية اليمين، والنافذة التي تطل على ناحية اليسار، زجاج معتم اللون وحوله إطار من الألمونيوم الرمادي. وكان الزجاج والألمونيوم يمتدان بعرض شقة محبوبتي كلها.

انقبضت نفسي، وجف ريقي، وشعرت أن يداً غليظة تمتد بداخلي لكي تعتصر القلب. نظرت إلى الشقق الأخرى. اكتشفت أن معظمها لم تعد كما كانت من قبل. شرفات زماننا القديم تحولت إلى مساحات من الزجاج المعتم والألمونيوم. لقد أصبحت جزءاً من الشقق، ومكان مساحات الفراغ زجاج أو خشب أو أسمنت. وفي الأدوار القريبة من الدور الأرضي، وجدت بدلا من الزجاج والخشب والأسمنت،

مساحات من الحديد المتداخل، على شكل قريب من شباك الصيادين، مما يعطي الانطباع بأن الذي بالداخل ليس شقة ولكنه سجن.

تحسرت، قلت لنفسي إن مشاهدة محبوبتي لن تكون سهلة، سيكون من الصعب عليها تحريك كل هذا الجدار الطويل والمرتفع من الزجاج والألمونيوم. إن ذلك يجعل كل من في بيتها يكتشف الحكاية. ويجعل الآخرين في البيوت الأخرى، يتنبهون للأمر. سألت نفسي: هل توجد محبوبتي وراء هذا الزجاج والألمونيوم وكيف تتنفس؟ قلت لنفسي: لِمَ أبدو متسرعاً؟ لِمَ لا أؤجل الموضوع كله إلى ما بعد؟

صعدت بالحقيبة الأولى على سلم البيت، لاحظت أثناء صعودي، كثيراً من وجوه الغرباء، يدخلون الشقق ويخرجون منها، وجوه غريبة، جاءت من كل مكان من العالم.

سألت – بعد ذلك – عن هؤلاء الغرباء. الذين يدبون في كل مكان من البيت. السلم والمدخل وأبواب الشقق والشقق نفسها. فعرفت أن أكثر من نصف شقق البيت تؤجر مفروشة. ليس في الصيف فقط، كما كان يحدث قبل سفري،

ولكن بعضها يؤجر على مدار العام كله. سألت عن سكانها الأصليين. فقالوا لي إن جزءاً من سكان هذه الشقق هاجروا وسافروا – مثلما فعلت أنت – ومن باب استثمار الشقة يؤجرونها مفروشة. إما يؤجرها لهم البواب أو أهلهم. وجزءا لم يهاجر ولم يترك البلاد. وهو أيضاً يؤجر الشقق مفروشة. الشقق التي يعيشون فيها طبعاً.

سألت:

– كيف؟

قدموا لي حالة محددة، الشقة التي فوق شقتنا، فيها ساكن وزوجته وثلاثة من أولاده. ما إن يهل السياح على مصر – وما أكثرهم أحياناً وما أقلهم في بعض الأحيان الأخرى – ما إن يهل السياح، حتى يذهب الزوج إلى شقة أهله ومعه جزء من الأولاد وفيهن بنات في سن الزواج. وتذهب الزوجة إلى بيت أهلها ومعها الجزء الباقي من الأولاد. وفيهم شاب يتعلم في الجامعة. يظلون هكذا – الزوج عند أهله والزوجة عند أهلها والأولاد بينهما – ما دام أن هناك سياحاً يبحثون عن سكن بعيداً عن الفنادق.

لم أكن أتذكر من الذين يسكنون فوق شقتنا. سألت عن الزوج، قالوا لي: إنه كان ضابطاً في القوات المسلحة، وهو الآن متقاعد، ويعمل مسئول أمن في أحد الفنادق. وسألت عن الزوجة. فقالوا لي إنها إحدى أساتذة علم الاجتماع في الجامعة. سألت عن إيجار الشقة، فقالوا: إنه في شهور الذروة، وهي شهور الصيف من كل عام، يرتفع فيها الإيجار إلى ألف جنيه في الشهر. وفي الشهور العادية – وهي باقي شهور العام – يبدأ من خمسمائة ويصل إلى سبعمائة جنيه في الشهر.

كان كلام أهلي حياديا، لم أفهم منه موقفهم من هذه الحكاية.

تعرفت على شقتنا، بيتنا الصغير، بصعوبة بالغة، وكان وصولي بهذه الطريقة مفاجأة، كادت أن تصيب قلب أمي بالتوقف من الفرحة. وارتفعت سعادة أبي إلى ذروة لم أشاهده عليها من قبل. ارتميت في الأحضان، عانقتهم جميعاً. تذكرت باقي الحقائب، نزلت العائلة كلها معي، من أجل إحضارها.

وبعد الصعود إلى الشقة وترتيب الأشياء، اكتشفت فقد حقيبة. كنت متأكداً أنني أخرجتها معي من المطار. وإن كنت غير متأكد إن كنت قد نسيتها في السيارة التي أحضرتني من المطار أو أنها ضاعت في الشارع.

سألني والدي عن رقم السيارة التي أحضرتني من المطار وأوصافها وأوصاف السائق. تذكرت الإيصال الذي كان معي. أخرجته وأعطيته له، كان مدونا به من البيانات ما يمكن والدي من إحضار السيارة ولو من تحت الأرض، وإحضار السائق ولو من بطن أمه – هكذا قال أبي بعد أن قرأ الإيصال – نزل أبي إلى الشارع، وأجرى تحقيقاً واسعاً سأل واستفسر، عاين وتحدث مع كل من كان موجودا لحظة حضوري. عاد ليؤكد لي أن الدنيا مازالت بخير، كرر والدي هذه الكلمة في جمل كثيرة له. مما أشعرني أن الرجل يخشى كثيراً على هذا الخير من أن يتسرب من الدنيا.

أكد لي والدي أنه سيحضر الحقيبة التي ضاعت. كان متأكداً من كلامه. وإن كنت لم أفهم سر تأكده من كل كلمة نطق بها.

وكانت أمي تنظر إليّ وإلى الحقائب وما عـدت بـه معي وتقول:

- غاب ابني وجاب.

كررتها:

- غاب وجاب.

بيتنا لم يعد هو بيتنا، حتى الجدران والسقف والنوافذ، خانت الصورة التي حملتها له في الـذهن طـوال سـنوات اغترابي وترحالي وسفري في مدن العالم البعيدة. كان فـي البيت غرباء لا أعرفهم، زوجات أخوتي، وأزواج شـقيقاتي، وكان المسافرون من العائلة كثيرين.

في البيت كان هناك أطفال جاءوا إلى هذا العالم فـي غيابي، كانوا مشغولين عني بالتليفزيون الذي كـان يحتـل صالة البيت، وكانوا يجلسون أمامه، مما جعل الصالة تبـدو مثل المقهى. كانوا سعداء بالفرجة على إعلانات، لا تفتـرق عن الإعلانات في تليفزيونات البلاد التي عدت منها. لدرجة أنه خيل إليّ لبعض الوقت، أن هذا الإرسال إنما يـأتي مـن البلاد التي عدت منها. ولكني عندما سـألت قـالوا لـي إن الإرسال إنما يأتي من هنا، من بلادنا. كانت فترة إعلانيـة، وكانت البضائع تحاصر الجالسين مـن كـل بلـدان العـالم بضائع. والجالسون تسيل من أعينهم حالة من الشبق الغريب،

حيث تتحول النظرات إلى خطوط تصل المسافة بين العين وشاشة التليفزيون.

سألت عن حجرتي، بانت الحيرة في وجوههم قبل الإجابة. حجرتي تحولت إلى حجرة زوجية لشقيقتي التي تزوجت. حجزت شقة ولم تتسلمها بعد. وتقيم فيها بصفة مؤقتة. قالوا لي، إن المشكلة محلولة، سيتم وضع فرشة مؤقتة في غرفة الصالون لي، حتى يتم تدبير الأمر.

تركت لهم الحقائب التي كانت معي، أخذت حقيبة واحدة، فيها ملابسي وأشيائي الخاصة، اعتذرت لهم إن كانت الهدايا التي عدت بها لن تتفق مع واقعهم الآن، وربما لا تناسب من أحضرتها لهم. اعتذرت لأن بعض من أحضرت لهم هدايا غير موجودين، وهنا من الموجودين من لم أحضر لهم أي هدايا، لسبب بسيط، أنهم لم يكن لهم أي وجود عندما سافرت. اعتذرت – لا أدري للمرة الكم – وأنا أشير ناحية الأطفال. قلت: إنهم لم يكونوا أحياء، يدبون على الأرض عندما غادرت أرض الوطن.

قلت لهم، إن معهم الحرية الكاملة في إجراء أي تعديلات في الهدايا كما يحبون، وانسحبت إلى الصالون الذي

أصبح حجرتي، بصفة مؤقتة، أغلقت الباب خلفي، كانت هناك مرتبة مفروشة على الأرض، بعد أن أبعدت الكراسي والكنبة إلى الحائط.

خلعت ملابس السفر، رحت أتخيل الوقت الآن في البلاد التي عدت منها، أعدت تصور الرحلة كلها، من لحظة البدء وحتى ختامها في البيت.

من وراء الباب المغلق عليّ، من الصالة، جاءت إليّ الأصوات وحركات الأقدام، والاختلاف حول الهدايا. ندمت لأنني لم أحضر معي كمية أكبر من الهدايا. سمعت التوتر المكتوم، وارتفاع الأصوات والخناق، وطلبات من يرغبون أن يكون الصوت خافتا حتى لا أسمع ما يقال في الصالة. سمعت أمي وهي تدعو لي بطول العمر والتوفيق. وأن يوفق الله لي أولاد الحلال في كل طريق. وسمعت أبي يتساءل إن كنت سأبقى معهم أم سأعود للاغتراب من جديد.

غيرت ملابسي، وكنت أتصور أنني سأنام فوراً، من الإرهاق من التعب، ولكن النوم جافاني، يقظة حارقة تسللت إلى نفسي، قررت أن أعود لهم من جديد ولكن بعد أن ينتهوا

من توزيع الهدايا عليهم، ويعرف كل واحد منهم نصيبه الذي حصل عليه.

حاولت الإنصات لكل ما يقال في الصالة، سمعت الأطفال يسألون عني: من هو؟ ومتى سافر؟ ولماذا عاد؟ كان الأطفال يسألون عن درجة قرابتي لكل منهم. طفل سأل عن تذكرة الطائرة وأين هي، وعندما جلست في الطائرة، هل جاء جلوسي بجوار النافذة أم بالداخل؟ طفل آخر سأل عن مدى ارتفاع الطائرة وهي تحلق بي، وثالث سأل إن كانت الطائرة قد طارت فوق السحاب أم تحته. والدي، الذي كان يبدو سعيدا بعودتي، رد على كل سؤال بالتفصيل. ولكنه عند السؤال عن الطائرة وارتفاع الطيران، وإن كان هذا الطيران فوق السحاب أم تحته، أحالهم عليَّ، يبدو أنه أشار إلى باب الصالون، وقال لهم إنهم يمكنهم سؤالي عن كل هذه الحكايات.

خرجت من الصالون الذي أصبح غرفتي، وجدت نفسي في مواجهة كل سكان البيت، شعرت بحالة من الارتباك، لم أعرف كيف أتصرف في مواجهتهم، كان الذين

أعرفهم قليلين، والذين لا أعرفهم ما أكثرهم. ولكن والدي بدد الارتباك، وحاول أن يقلل من إحساسي بالاغتراب في بيتي.

جلست في وسطهم، أحضرت أمي طعاماً كثيراً. ولكن إرهاق الرحلة، وحالة التوتر التي كانت بداخلي لم تعطني الفرصة لكي آكل. نظرت على الطعام وكان لديَّ إحساس بالجوع، ومع هذا لم أقترب منه، كانت لديهم حالة من اللهفة لمعرفة أخباري، وكنت كلي شوق لسماع أي كلمات عن محبوبتي، ومعرفة كل الأمور الجديدة التي طرأت على حياتهم وأنا في بلاد الغربة. وقبل عودتي إلى الوطن.

كنت في حالة من الترقب لمعرفة أخبار الحي والناس والمدينة والوطن وما جرى فيه. في سنوات الترحال كنت أخطف الأخبار خطفاً أثناء التجوال على الأرصفة والجلوس على المقاهي.

ولكن الأخبار التي خطفتها لم تكن تصلح لأن تشكل في الذهن صورة عما جرى في الوطن. خلال غربتي، كنت أتمنى أن أحول الصمت إلى كلمات، وأن تصبح الكلمات محاولة لرسم صورة بلادي، أثناء سنوات الغياب.

وحول هذه النقطة اختلف ما سمعته لحد التناقض في بعض الأحيان. هناك من حدثني عن التغيير العنيف الذي جرى في غيابي، حتى الكلمات انقلبت معانيها، وكل ثوابت الحياة أصبحت متغيرات. والمُسَلَّمات لم تعد كذلك. تذكرت أنني قبل عودتي إلى بلادي. قال لي زميل من أبناء الوطن، كان يعوم معي في مياه الغربة: إنني سأعود لأكتشف أن كل ما تركته كما هو، لا شيء تغير، الحال هو الحال. ومرور الوقت بطيء وأعشاش العناكب موجودة في كل الزوايا والأركان، والتراب يغطي كل شيء. لم يكن ما قاله لي زميل الغربة صحيحا. فكل ما تركته عدت لكي أجده قد تغير، حتى المباني والأشياء.. تغيرت بصورة لم أكن أتوقعها.

فكرت أن أسألهم عن محبوبتي، ولكني فضلت الصمت. كنت متأكدا أنهم سيتكلمون بعد فترة من الوقت.

بدأت بالسؤال عن أكثر الأمور التي لفتت نظري، البلكونات التي اختفت من البيوت، تحدثت عن هذه الظاهرة رافضا لها، تكلمت عن البراح وهواء الله، وسألت: كيف ندير ظهورنا لكل هذا؟ فوجئت بهم يقولون لي، إنه لولا أن العين بصيرة وأن اليد قصيرة لفعلنا مثلما فعل غيرنا. تعجبت من

إجابتهم وسألت: إن كانت هناك تعليمات من الدولة بذلك. ضحكوا من سذاجة السؤال. وقالوا: كل ما في الأمر إن تفضيل الشرفات يؤدي إلى مزيد من البراح ويُوجِد مساحات واسعة في البيوت.

والمشكلة أن البيوت كما هي – قالوا لي – ولكن العائلات زادت. الأبناء تكاثروا، وعندما كبروا تزوجوا وبقوا في نفس البيوت، من يستطيع تأجير شقة الآن؟ من يستطيع؟ لم يكن هناك مفر من إجراء تعديلات في البيوت. وهذه واحدة منها. الكل يفعل ذلك الآن. وفي البلاد شركات تعلن يومياً عن قيامها بذلك العمل. ومن لم يوسع شقته ينوي أن يوسعها، ومن يقول إنه لا يفعل هذا، إنما يقوله لأنه غير قادر على ذلك.

قلت، ولكنه يقيم حواجز، ويمنع الهواء الطبيعي من الدخول إلى البيوت، إنه يزيد العزلة بين الناس، تساءلت: كيف يتكلم الجار مع جاره؟ في زماننا كنا نتكلم من الشرفات ساعة العصاري الطرية، ونحن نشرب الشاي بالنعناع، بعد أن ننام وقت القيالة في البيوت.

رد والدي على سؤالي بأكثر من سؤال: أي ناس وأي جيران؟ أين هم جيران الزمان الذي تتكلم عنه؟ قال لي إنني غبت عن الوطن كثيراً. وخلال فترة الغياب، انقطعت السبل والصلات بيني وبين البلاد. وبيني وبين سكان البلاد، ولذلك لم أعرف ما جرى خلال هذه السنوات.

إن كل ما في الوطن – قال والدي – قد تغير، وقال إنه يفضل الحديث في هذه الموضوعات بعد فترة من الوقت. قلت لنفسي، إن الكل ينكفئ إلى الداخل. داخل البيت، وداخل ذاته.

تهت بين الأخبار التي سمعتها منهم، أخي سافر إلى ليبيا وعاد بعد السنة الأولى، وقرر أن يسافر مرة أخرى إلى الخليج، وفلان وعلان، فعلا مثلما فعلت. الكل سافروا. والباقون يفكرون في الرحيل. قالوا لي: إن العديد من الأسر الآن، لا يوجد الرجل الذي يعولها، إنه بعيد، يعمل هناك، ويحصل على أجره، ولكنه لا يدري أنه يدفع الثمن هنا بغيابه عن أسرته هذه الفترات الطويلة.

فكرت أن أعترض على كل هذه السفرات، ولكنني خجلت من الاعتراض. خشيت أن يواجهوني بحالتي.

ويسألوني عن سفري، ولماذا طال كل هذه المدة، فكرت في الحديث عمن يترك وراءه أسرته ويسافر، ومن يترك وراءه مصالح ويسافر، ومن يتمكن من تحقيق مطالب الحياة من دخله هنا ويسافر، ولكني فضلت الصمت. قلت لنفسي، لأستمع إليهم أولاً، قبل أن يأتي دوري في الكلام.

أخبار كثيرة، سمعتها عن الذين سافروا، والذين عادوا من السفر، والذين سافروا من جديد، والمال الذي عادوا به وكيف استثمروه. امتدت الحكايات إلى الأصدقاء وزملاء الدراسة. واحد اشترى أرضا، وتركها لكي يبيعها بعد ارتفاع أسعارها. والثاني بنى عمارة، ثم باعها بنظام التمليك. قالوا لي، لا أحد يؤجر الشقق التي يبنيها في هذه الأيام. الكل يملّك. سألت عن أسعار الشقق، والأصفار التي ذكرت أمام الأرقام لم تقل عن الثلاثة، وإن زادت في بعض الأحيان.

سألت وهل يقدر الناس على دفع هذه الأرقام المطلوبة؟ قالوا لي، لا تسأل عن قدرة الناس أبداً، المهم أن هذا هو الموجود، تقدر أو لا تقدر ليست تلك هي المسألة. سألت: وهل يوجد من يشتري شققا؟ ردوا عليَّ، إنه يوجد

فعلا من يشتري الشقق ومن يشتري البيوت والعمارات والفيلات.

قالوا لي عليك بصفحات الإعلانات في الصحف لتجد عربدة الأرقام اليومية. لن تجد فيها من يبيع فقط ولكن هناك من يعلن أنه يرغب في الشراء. أكدوا لي أن هناك من عاد من الخارج، ومن عملية واحدة، كسب عشرة أضعاف المبلغ الذي عاد به من الخارج، جرى هذا في غمضة عين. حدثوني عن صديق عاد من الخارج فقيراً، فاشترى سيارة وحولها إلى تاكسي وركبه بنفسه، وأصبح العائد له من التاكسي مبلغاً كبيراً في اليوم الواحد. فقرر عدم السفر مرة أخرى. ورابع أقام مشروعاً للأمن الغذائي.

تساءلت عن العلاقة بين الأمن والغذاء، فلم يردوا مباشرة، ولكنهم قالوا: إنها مشروعات هدفها حل أزمة الغذاء التي لم تحل أبداً، وإنهم كانوا يقرءون اللافتة معلقة على أكشاك كثيرة، على نواصي الشوارع وبالقرب من الميادين العامة.

قال أحدهم: إنها تحتاج إلى أمن الأمن الغذائي. وأكد لي والدي إن من يعمل في مثل هذه المشروعات يحصل على

تسهيلات كثيرة من الدولة باعتبار أنه يقدم خدمة للناس، ويساهم في حل إحدى مشاكل البلاد، وعلى الرغم من كثرة أبطال وفتيان ورجال وقادة الأمن الغذائي، إلا أن المشكلة كما هي.

حكايات وحكايات، كنت كالتائه بين التفاصيل الكثيرة. وكان خيط الحديث ينتقل من فرد إلى آخر بصورة طبيعية، وعندما كانوا ينطقون أحد الأسماء، كنت أحاول أن أتذكر صاحبه وشكله وبعض الحكايات عنه.

ومما سمعته اكتشفت أن معظم الزملاء والأصدقاء خارج الوطن، زميل واحد قالوا إنه موجود لم يسافر، يهاجم كل الذين سافروا، يهاجمهم عند السفر ويقول: تخلوا عن الوطن وقت الشدة.

سألت إن كان قد هاجمني عندما سافرت، قالوا إنه لم يستثن أحداً من هجومه. أكدوا لي أنه وصف قرار سفري بأن فيه بعض الأنانية الفردية. فظروفي الخاصة كما يراها هو لا تدفعني، للسفر ليس هناك سبب خاص ولا ظروف صعبة.

حضر إليهم بعد سفريِ، وسألهم: لِمَ سافر؟ لم يردوا عليه، قالوا له: لماذا لم تحضر إليه لكي توجه له سؤالك قبل سفره؟ قال لهم: إن الكل يعتَبر قرار سفره سراً خاصاً حتـــى لحظة السفر. صاحوا فيه: هو يسافر وعلينا نحـــن أن نقـــدم الأسباب. قالوا له من جديد: لم لا تسافر وراءه لكي تســـأله عن سبب سفره؟ قال معاذ الله.

هذا الصديق لا يهاجم النـــاس عنـــد الســـفر فقـــط. يهاجمهم عند العودة أيضاً، يقول: عادوا لكي يشاركونا فـــي رضاعة ما تبقى من لبن الأم التي أصبحت عجوزا. بعـــد أن سافروا وهربوا من مواجهة الأوقات العصيبة، وعندما عادوا انقضوا على البلاد، نزلوا بالبارشوتات، لكي يزاحمـــوا مـــن بقي في البلاد.

عادوا لكي يحصدوا أرضاً لم يزرعوها، ويســـتولوا على ثمار زرع لم يرووه. وفي كلتا الحالين، كانت ظروفهم أحسن.

سعدت وأنا أسمع كلامهم عن هذا الزميل القديم الذي لم يسافر، سعدت بيني وبين نفسي. إذن هناك واحد فقط قال لا للسفر وبقي هنا. لم يجرفه تيار جوازات السفر ولا شـــكل

الطائرة ولا أزير الطائرات ولا حقائب السفر، ظل هنا. بقي هذه السنوات كلها. كان موقفي منه غريباً، فأنا أحـد الـذين سافروا، ولابد أن لدي أسبابي لهذا السفر، وربما سافرت من جديد، ومع هذا كنت أعيش حالة من الإعجاب بمن بقي هنا، من رفض السفر، لقد فعل ما لم نفعله جميعاً. كنا مجموعـة من الأصدقاء. نقول عن أنفسنا إننا جيل من أبنـاء الحـي. سافرنا جميعاً وبقي واحد فقط، سألت نفسي بعيداً عن الـذين يجلسون معي: أليست نسبة مخجلة؟ ومع هذا فهـي أفضـل ألف مرة من أن يقال إن الكل سافر.

سألت عن هذا الصديق الوحيد الباقي. فكـرت فـي الذهاب إليه، هو الوحيد الذي سيحدثني عن محبوبتي. لأنهـم في البيت تكلموا عن كل الأمور ما عدا محبـوبتي وأسـرة المحبوبة. وأنا أستمع إليهم، ظل وجه المحبوبة في خيـالي، الوجه الذي لم يغب عني إلا لكي يحضر من جديد. اكتشفت أنه لم يفارقني لحظة واحدة. بـدأت أنظـر إلـى جلسـتي، وأقارنها بجلسة الأيام الخضراء التي مضت، والتـي كنـت أتصور أنني قادر على استعادتها فور رجوعي إلى الـديار. ولكن يبدو أنها ولّت ولن تعود.

تحسرت على تلك الأيام، نظرت إلى البيت المقابل، اكتشفت أن جلستي جاءت في مكان لا يمكنني من رؤية بيت محبوبتي، فحدثت لي حالة من التشاؤم، لم أسترح لهذا الإحساس. وفي محاولة للخروج من هذا الجو النفسي، قررت أن أغير المكان الذي أجلس فيه.

غيرت مكان جلوسي، جلست في مكان أشاهد منه شرفة محبوبتي، الشرفة التي تحولت إلى مساحة من الزجاج المعتم المحاط بأعمدة من الألمونيوم الرمادي. وطوال جلستي لم أشاهد أي ضوء ولا أي حركة في شقة محبوبتي. كدت أن أسأل أكثر من مرة. ولكنهم سألوني، جاء سؤالهم قبل سؤالي: والآن ماذا عن مشاريع الغد؟ أتى السؤال قبل الأوان. لم ألتقط أنفاسي بعد. مازال تراب السفر على ملابسي فهي لم تغسل بعد. وإحساسي مازال معلقاً بالبلاد التي عدت منها. أما هنا فمازالت الدهشة تحت المسافة بيني وبين الناس والأشياء.

حاولت الهروب من الإجابة، قلت إن الوقت لايزال مبكرا على مواجهة مثل هذه الأمور التي لم أفكر فيها بعد.

صمتوا متظاهرين بتصديقي. ولكن والدي قال إنه في وقت آخر لابد من مناقشة هذا الموضوع.

وأنا قلت لنفسي، يعنيني من هذه البلاد، محبوبتي والنيل. لدي وعد من النيل قبل العودة من الخارج. ورغبتي في رؤية محبوبتي تصل إلى حد الجنون. ومحبوبتي جعلتني أتذكر مرة أخرى صديقي الذي لم يسافر. أبديت رغبتي في الذهاب إليه. ولكنهم قالوا لي إنهم سيرسلون في طلبه الآن.

وما إن يعرف أنني حضرت حتى يأتي هو إلى بيتنا. وأنا عائد من السفر ومتعب. تعب الترحال أكبر تعب في الدنيا يهد حتى العظام. قالوا لي إنه كان يسأل عني دائماً. كان يتساءل عن الخطابات التي أرسلها والبلاد التي ذهبت إليها. وكلما عرف أنني ذهبت إلى بلد جديد يضرب كفا بكف ويتساءل: متى يحط على الأرض مرة أخرى؟ وكان يقول إن الأرض الوحيدة التي يمكن أن أحط عليها لن تكون سوى على شط النيل.

حضر إلينا صديقي الذي ظل في البلاد، هو الوحيد الذي بقي كما هو، لم يتغير فيه أي شيء. تغيروا وبقي كما هو، تبدلوا واستمر على حاله، خلعوا حتى جلودهم، وهو

هو. يبدو لي كأنه يتحدى الزمن. بدا لي كنوع من الاحتجاج على ما آل إليه حال الكل.

ملامح وجهه وكل ما فيه كما هــو. ارتميــت فــي أحضانه وسعدت بحضوره. قلت لنفسي وأنا أســتريح فــي أحضانه، هو الوحيد الذي ربما يحدثني عنهما معاً: محبوبتي والنيل. ذكرته بما كان يقوله لي عن مصر، قبل سفري. قلت له إن كلماته مازالت معلقة في أذني وكأنني أســمعها الآن. وقبل أن ينطق قلت له: مصر: الأرض لها رائحة والماء لــه طعم والسماء لها لون. وأهلها قلوبهم فــي بيــاض الحليــب وصفاء قلوب الأطفال ورحابة قلوب العشاق. التمعت عينــاه من الفرح. وتحول وجهه إلى ابتســامة أضــاءت المكــان. وحدثت لي الرعشة اللذيذة. الحلوة والغريبة والطارئة. التــي شملت جسمي كله عندما وضعت قدمي على أرض بــلادي. وقام صديقي القديم، عانقني من جديد، وأحسست فيه بصــدق نادر. قال لي: لنعد إلى حديثنا.

بدأت حديثي بسؤالي عن النيل. قال لي إنه لا يعرف أي شيء عن وعد النيل لي. ولكن من الصعب القول إنه كما هو. إن ظروفه أصعب. النيل؟! قالها متسائلاً وأكمل. تبــدأ

منه مواسير المياه التي نشربها وتنتهي إليه مواسير فضلاتنا، النيل الذي كان سر العشاق في الليل، ووسيلة سفر أبناء أيوب من المصريين. إنه سجين، محبوس لا يتمكن حتى من أن يغسل نفسه، لم يعد هو المسافر في الزمان أبداً. وشعراء زماننا لا يقولون الشعر بين يديه، ولا يقولون قصائد الشوق في غزله. ومطربو زماننا لا يغنون له. ولم يعد هو الذي يهب لنا الحياة، لأن الحياة تأتي لنا من العواصم الأخرى، من البلاد البعيدة، عبر المطارات والموانئ ومن خلال الجمارك.

ومحبوبتي؟! أما المحبوبة – قال زميلي القديم –: أحدكما خان الآخر. إما إنك خنتها وهربت وسافرت، وإما إنها هي التي خانتك بما أقدمت عليه. قال لي، في كل الأحوال فإن فعل الخيانة وقع في منتصف المسافة بينكما.

دخل الحديث إلى المنطقة الحرجة. ومن الأفضل أن نكون بمفردنا. أخذت صديقي القديم إلى الصالون الذي أصبح حجرتي. وطلبت منه – من جديد – أن يحدثني عن محبوبتي. بدأ بالحديث عن الخيانة التي وقعت. قلت له لكي أريحه وحتى ننتقل إلى النقطة الأخرى، إنني أنا الذي خنتها وإنني المذنب الأول في هذه الحكاية كلها.

قال لي صديقي، وكأنه كان يقرأ من كتــاب مفتــوح أمامه. إن محبوبتي تزوجت. وقع ما كنت أخشاه إذن. عدت وكأنني لم أعد. أتيت وما أتيت، تزوجت محبوبتي. هي الآن مع شخص، إنسان غيري، لم أكن أتوقع هذا. ومــاذا يفيــد توقعي؟ سألت نفسي: هل كان من المعقول أن تبقى كل هــذه السنوات في انتظاري؟ سألت نفسي من جديد: وماذا فعلــت لها حتى تبقى؟! ومن باب توزيع التهم بالعــدل فيمــا بيننــا سألتها في خيالي، وماذا فعلت هي من أجل الاتصــال بــي؟ بقيت، مكثت، انتظرت. جلست ساندة خدها على يدها اليمنى بجوار النافذة. ظلت هكذا حتى اكتشفت أن النافذة لم يعد لها وجود. زواج، سبقه تعارف فلقاء فحب فخطبة ثم ليلة الدخلة وشهر العسل. كنت أرغب في سماع كل هــذه التفاصــيل. ولكن زميلي الذي بقي في البلاد، قال لي ما جدوى المعرفة. لم عذاب التفاصيل ولم الجزئيات الصغيرة.. لم؟؟ لم؟ كــان زميلي متألما ولأنني كانت بي رغبة أن يتكلم. ســألته عــن زوجها. زوج محبوبتي: قال لي إنه مهنــدس ري، تركــت المدينة بعدك بسنوات. سألت نفسي – لا أدري للمرة الكم –

ولم أكتفت بالانتظار فقط، فقال صديقي القديم، في بلادنا، تكتفي البنت العاشقة بالانتظار فقط. انتظار حبيبها.

لقد أخطأت – هكذا قلت لنفسي – تركتها وسافرت ولكن لماذا لم تتحرك هي من أجلي؟ لماذا لم تذهب ورائي؟ لماذا لم تحاول إعادتي إليها مرة أخرى؟ سألت عن عنوانها، أحضرت ورقة وقلما. نظر صديقي القديم إلى الورق والقلم الذي أحضرته. نظر طويلا إلى القلم الغريب الذي كان في يدي. طالت نظرته فتصورت أن نظرته التي طالت هي نوع من العقاب لي، لأنني حضرت من الخارج دون أن أحضر له هدية معي. أدركت، في لحظة الصمت الطارئة، أنني أخطأت. حاولت أن أتذكر كل ما معي من الهدايا لعلي أوفر له شيئاً. فكرت في القيام من مكاني والبحث في بقايا وأشلاء معركة توزيع الهدايا، التي تمت منذ قليل. حاولت أن أميل على أبي، لكي أسأله همساً ودون أن يسمع صاحبي عن هدية ما. وقبل أن أسأل والدي، يبدو أن صديقي أدرك أزمتي فسألني:

– مالك؟

عبرت عن حرجي وقلت له. لَوَّح مهونا من الأمر:

- عودتك هي الهدية الكبرى لنا جميعاً.

ولكي أخرج من هذا الحرج، سألته عن أحواله، قال لي، إنه يذهب إلى العمل صباحا، ويقرأ ويكتب في المساء. وفي يوم الخميس، من كل أسبوع، مساء، ينزل إلى المدينة، يلف ويدور ويجلس على المقهى ويتعشى في المطاعم ويعود. تلك هي نزهته الأساسية.

أشرت إلى يديَّ وسألته. أقصد إن كان قد ارتبط بشريكة عمره. شعرت بالضيق في وجهه لأول مرة. وقال إنه تزوج فعلاً، وقبل السؤال عن الزوجة، شرح لي، إنه تزوج هموم الوطن.

قلت محاولاً الخروج من المأزق الذي وجدت نفسي فيه، وماذا عن الأحوال المالية؟ قال لي إن لديه نظرية غريبة اسمها: قدرة الإنسان على التكيف. يمكن للإنسان أن يحيا بعشرة جنيهات ويمكنه أيضاً الحياة بعشرة آلاف. المهم هو قدرته على أن يكيف ظروفه. قل لي: إن ظروفه مستورة، ليست جيدة كما أنها ليست صعبة.

- ظروف على الحافة.

شرح كلمة الحافة. قال إنها تعني عدم الأكـل حتـى الامتلاء والشبع، وعدم الجوع حتى التفكير في الثورة، وذلك هو حال كل من يعملون حتى العرق في مصر الآن. أكد لي إنه لم يقع في الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون. وهـذا الخطـأ اسمه الوظيفة الثانية. ما من إنسان إلا وله عمل ثان، بحجـة أن العائد من العمل الأول لا يكفي، مع أنه نوع من التوريط المستمر. إن المسألة تبدأ من التعود على الحيـاة بمـرتبين. وبعد التعود يكون من المستحيل العدول عن هذا.

تدخل والدي، طلب من زميلي ألا يكون قاسـياً فـي الحكم على الناس، فلكل إنسان ظروفه، صديقي لم يغضـب من تحذير والدي، ولكنه قال إننا نتسامر، وإنه كلام يـذهب مع الهواء. وعندما طلبت منه الاستمرار، قال: إننا – قبـل سفري – كنا نتحدث عن الزوجة الثانية وأضرار ذلك علـى الأسرة. والآن لا حديث إلا عن الوظيفة الثانية، والضـحية قيمة من قيم زماننا القديم اسمها العمل. ففي الوظيفة الأولـى لابد وأن يستريح الإنسان حتى يقدر على العمل في الوظيفـة الثانية. وفي الثانية يكون متعبا من محاولاته أن يستريح فـي الأولى.

وعندما يعود إلى البيت لابد أن يدفع لهم، لقد غاب من بكة الشمس حتى مجيء الليل. والثمن أن يلبي كل الطلبات. وهكذا يجري.. يجري.. ولكنه يعود في المساء وجيوبه خالية تماماً.

قال لي: لماذا تتعجل الأمور، كل ما ترغب في معرفته سيصل إليك في الوقت المناسب. قلت له إننا بعدنا عن الموضوع الأصلي. العنوان الذي كان سيمليه علي. قال لي إن عنوان محبوبتي لا يكتب في أوراق. فهي تعيش مع زوجها وأولادها في مدينة تنام في حضن ثلاثة أنهار.

- أنهار ثلاثة؟!

تساءلت:

- وهل في مصر أنهار ثلاثة في حالة عناق؟

كم تغيرت حتى جغرافيا الوطن؟ معالم الوطن القديمة تاهت. تذكرت أنني لم أشاهد هذا التغيير في الخريطة المرسومة فوق حبة القلب، ولا في الخرائط التي كنت أتوقف أمامها في محطات السفر والغربة. ربما كان هذا التغيير حديثاً جداً. ولم يتم رسمه في خرائط بعد.

ثلاثة أنهار في الوطن ويعاني؟ كيف هذا؟ بدا الموقف مثل الحكايات التي كنا نسمعها ونحن صغار. تخيلت حال الوطن. نهر يجيء فيه ماء يحمل الطمي. ماء بني اللون. ونهر تجري فيه ماء الحياة. تشفي المريض وتعيد العمر من جديد وتحمل منها حتى المرأة العاقر. والنهر الثالث يجري فيه العسل الأبيض. نخرج إليه ونشرب منه، أخرجني من أحلامي صوت صديقي القديم. قال لي: إنه يميزني عن الناس هنا أمر واحد. إنه مازالت لدي القدرة على الحلم. لقد عجزت الناس حتى عن أن تحلم.

صحح لي معلوماتي، قال إنه نهر واحد. تعيش المحبوبة في مدينة صغيرة. توجد في المكان الذي يتحول فيه النيل القادم من صعيد مصر، من الجنوب البعيد، إلى نهرين، بينهما ركن صغير. وفي هذا الركن الصغير يوجد بيتها. يحده من الناحية القبلية نيل الجنوب. ومن الناحية الشرقية نيل دمياط، ومن الناحية الغربية نيل رشيد.

تذكرت ما كنا نتعلمه في المدارس. فرع رشيد وفرع دمياط، لقد سمَّى زميلي القديم، كل فرع نيلا مستقلا. يبدو أنه يعيش نفس الحلم الذي بداخلي. أن يكون في بلادي أكثر من

نهر واحد، ويعبر عن حلمه بهذه الطريقة العزيزة، أن يتحدث عن الفرع وكأنه نهر مستقل.

وفى سنوات الترحال، ما من مرة قربت فيها كــوب ماء من شفتي حتى تذكرت النيل. وسمعت صوت أمي مثــل هديل الحمام في البناني، يقول إن ماء النيل يشفي العليل، وما من مرة شربت فيها حتى أدركت أن مياه الغربة، كل ميــاه البلاد البعيدة، لا طعم لها أبداً.

سألت صديقي:

– والناحية القبلية؟

– نهير صغير. يوصل ما بين نيــل دميــاط ونيــل رشيد.

سألته:

– تعيش في جزيرة إذن؟

قال لي:

– حولها دائرة محكمة ومغلقة من المياه.

– والوصول إليها؟

– لابد من قارب والقارب يعبر النهر.

تفاءلت خيرا، قلت لنفسي: محبوبتي والنيل في موعد واحد. أدركت أن الحلم الذي أتاني في الغربة قد يتحقق، لن يخلف النيل وعده لي. رحت أحاول أن أتذكر تفاصيل الحلم بكل دقة. لن أنسى أبداً، أن المشهد في الحلم كان يخلو من أي لون؛ التراب والأرض وماء النيل والأشجار والزراعات وسماء الله العالية. كل هذا كان لونه رمادياً، وإن النيل قال لي وعده بلغة عربية سليمة. رغم أنني كنت من بلاد ترطن بلغات غريبة. عندما صحوت من نومي سألت نفسي: لماذا جاء لي ماء النيل ووجه محبوبتي معا؟ قلت لنفسي، إن ما لم أره في الحلم، مكتوب لي أن أراه في الحقيقة، فهي تعيش وسط النيل، يعانقها النهر من كل جانب، حولها الخضرة ومن وراء الخضرة المياه. ومن المؤكد أن وجه محبوبتي فيه الآن كل الحسن الموجود في عالمنا.

وفى الليل، خيل إلى أن النيل، سيفيض لحظة التلاقي مع محبوبتي. كنا اثنان عندما سافرت من البلاد والآن نحن ثلاثة: أنا ومحبوبتى والنيل. تركني زميلي على أمل اللقاء. سألني متى نلتقي مرة أخرى، حتى نحاول رؤية الوطن معا؟ عين آتية من بعيد، بعد فترة طويلة من البعاد. وأخرى لم

تترك البلاد لحظة واحدة. قال لي، ستكون رؤية فريدة، فهو يحتاج لرؤيتي. وما سيقوله لي، يكمل ما عندي.

قلت له إنني لن أعطيه أي وعد. قبل القيام بالرحلة التي عدت من أجلها. سألني عن هذه الرحلة، فقلت له إن لدي وعدا من النيل.

- ثاني.

نطقها زميلي القديم. وقال بيأس: إن فترة البعاد أثّرت علي. بعد انصرافه، أدركت أن نوم الليلة الأولى بعد العودة إلى الأوطان يبدو عزيز المنال، صعبا. ومع هذا حاولت، واستمرت المحاولات طويلا. وعندما جاءني النوم، تمنيت لو أحلم مرة أخرى. لو ألتقي مع محبوبتي والنيل من حولنا ينبض من كل الجهات.

دعاني النيل وهأنذا عدت إلى البلاد. لقد وفيت بوعدي فهل يفي النيل بوعده لي؟!

-٣-

كباري، كباري، كباري، عمارات، محلات أنفــاق، أرصفة، عمارات عالية، ناطحات سحاب تشكل ستارة تحجب النيل.

لن أصدقهم أبدا، لن تعرف كلماتهم الطريــق إلـــى أذني. وكل سكك القلب مغلقة دونها. من المستحيل أن تكون محبوبتي قد تزوجت. إنها مؤامرة مــنهم يحــاولون – مــن خلالها – منعي من الوصول إليها، حتى لا يحدث اللقاء ولا تتم المعجزة.

محبوبتي في انتظــاري، أعــرف مشــكلتها، فهــذا الانتظار من الصعب أن يتحول إلــى كلمــات. لــن تقولــه للآخرين، لابد وأن تعيشه ولكن بمفردها.

الصباح الأول في بلادي، بعد العودة. النور البكــر، الضياء الأول. تشرب العينان حتى لون الضياء نفسه، وتسمع الأذنان حتى صوت تنفس الصمت. من الصعب القول إننـــي نمت ليلة الأمس، ومع هذا أشعر بحالة غريبة من الراحــة.

يبدو لي أن الجنب عندما يلاقي أرضه يستريح حتى دون نوم.

ولأنني كنت أنتظر هذا الصباح، تلكأ الليل وتباطأ، وتوقف في محطات كثيرة، وفي بعض الأحيان، رفض أن يتحرك. كنت صبوراً. لا مفر من التحلي بكل صبر أيوب حتى يبلغ الإنسان مراده، وأنا الآن على بعد فركة كعب مما أريد. طال السفر والترحال. ولكن ها هي المحطة والمرسى ونقطة الوصول.

فاتت الأزمنة الصعبة، وجرت الأيام العكرة إلى الوراء، أصبحت ماضيا.

الصباح الأول، الضوء الطري البكر الأول. رحت أغمض عيني، أحاول أن أحيا – بعين الخيال – الصباحات الماضية. قبل سفري من هنا. وأعود إلى هذا الصباح الجديد الذي أعيشه.

تعبت من المقارنات. قلت لنفسي، ما دمنا سنلتقي نحن الثلاثة، أنا والنيل ومحبوبتي، سيعود الزمان كما كان وأكثر. سيعود الماضي مرة أخرى.

كباري فوق الأرض، تغطي الشوارع القديمة، وتنتهك أسرار الأدوار السفلى من البيوت، كباري فوق النيل، تخنق الهواء فوقه، أجهزة تكييف في العمارات. ونوافذ الزمن القديم أصبحت حوائط من الألمونيوم والزجاج المعتم. سيارات، أتوبيسات، عربات نقل، أوناش، كراكات، بشر. بضائع في كل مكان، لافتات، جو ملوث بالأتربة والغبار، والصخب والضجيج.

لابد وأن محبوبتي، انكشف الستر عنها. رأت ما لا يراه الآخرون، وسمعت ما لم تسمعه أذن بشر، عرفت أنني قادم. شاركتني الحلم. جاءها النيل في الليل وبشرها بالخلاص. وقررت أن تعيش اللحظة التي لا تتكرر في العمر كله. تحدث مرة واحدة وكفى. ولابد وأن تكون من شهود اللحظة.

يبدو أنها لا يمكن أن تتكلم معهم عن أسرارنا. فكلمات الحب عندما تقال تموت. لحظة النطق بها هي نفسها لحظة وفاتها. والبوح بأسرار العشاق لا يقدر عليه العشاق أبداً. ولذلك قالت لهم حكاية الزواج.

لا يمكن أن تكون صدفة، أن تذهب محبوبتي وتعيش هناك وسط ماء النيل. في الشرق ماء وفي الغرب ماء. وفي الشمال ماء وفي الجنوب ماء، ثم يأتي النيل إليّ في ديار الغربة، في نفس الوقت ويعدني بحدوث المعجزة، التي هي الفيضان. قلت لنفسي، إننا نحن الثلاثة على مشارف حدث عظيم. حدث العمر كله. الحدث الذي يصبح كل ما قبله تمهيداً له. وكل ما بعده هو الخواتيم التي تأتي بعد الأحداث.

الصباح الأول، صحوت من النوم مبكرا، على صوت الضجيج الذي ملأ شقتنا. اكتشفت أنها أصبحت شقة مزدحمة بالناس. قمت من نومي. فقدت دورة المياه والحمام الخصوصية القديمة. لم يعد المكان مألوفا لدي. شعرت أن الآخرين الذين يستخدمونها أفقدوها الطعم والطابع الخاصين. الغرباء استباحوا بيتي، انتهكوا طعمه ومذاقه.

كنت أمني نفسي بطقوس الزمن القديم الصباحية، الاستيقاظ مبكراً، وهذا حدث. الصمت الصباحي المثقل بندى وطل الليلة الماضية، الأحداث التي تخدش هذا الصمت الصباحي المقدس على استحياء. بائع الفول في الشارع، اللبان الذي يحمل اللبن الحليب على دراجة. صوت القرآن

الكريم يأتي من الراديو القديم المفتوح في صالة الشقة. راديو كهربائي من الخشب عمره الآن أكثر من نصف قرن. الترتيل شجي يبعث بالدموع إلى مآقي الأعين في هذا الوقت من النهار.

تبدو الحياة وكأنها امرأة مفكوكة الشعر، خارجة لتوها من النهر، استحمت واستحمت. وهاهي تجفف جسدها تحت خيوط شمس الصباح الطرية الخجولة. وتظل مبلولة نظيفة مغسولة حيث قبل لحظة انتصاف النهار.

رحت أبحث عن ذلك الصباح الجميل، الذي كنت أعيشه في الزمان الأخضر الذي مضى. ولكني لم أعثر عليه. أخلى الصمت مكانه للصخب، لم أجد الراديو القديم، الذي كان تحفة جميلة. حل مكانه تليفزيون يصمت طوال النهار ويتكلم وتتحرك صوره طوال النصف الأول من الليل.

جلست إلى مائدة الإفطار التي انتظرتها قبل الحضور. كنت أعد نفسي لطبق الفول بالزيت الحار وأقراص الطعمية الساخنة والأرغفة المصرية السمراء والطرشي البلدي والجرجير الأخضر ومعه البصل الأخضر، إن كنت سأبقى في البيت طوال النهار.

كان ذلك هو الإفطار التقليدي، الذي كنت أتذكره في سنوات الغربة، أتذكر طعمه في فمي، بل وأشم روائحه في أنفي كلما جلست أفطر.

كان والدي هو الذي ينزل بنفسه لكي يحضر هذا الإفطار، الذي كان يحبه ويجد سعادة خاصة في شرائه بنفسه. كان يهل علينا مع نور الصباح الرمادي، والذي يبدو خلف النوافذ قريبا من اللون الداكن وبيده سلالي أصفر اللون، بداخله ما اشتراه كله باستثناء الفول الذي كان يحضره في كسرولة. كان يحمل السلالي في يد والكسرولة في اليد الأخرى. كان والدي يرتدي جلبابا أبيض اللون، مثل اللبن الحليب، وفوقه عباءة سوداء اللون موشاة بتطريز لونه أصفر، وفوق رأسه طاقية من الصوف المغربي شتاء، ومن نفس قماش الجلباب صيفا. وفي القدمين بلغة سوقي بيضاء، تبدو وكأنها بدون نعل وبدون كعب.

يدخل حاملا طل الصباح ونداه على كتفيه. وتنتشر على شاربه بعض نقاط الطل. ويكون في قمة سعادته وهو يمر بيديه عليها. يقول إنها دموع الليل التي تتبخر بالنهار.

تناكفه أمي وهي تأخذ منه ما اشتراه. تقول له ما هو لزوم وجع الدماغ بالأولاد في البيت مادام هو الذي ينزل لكي يشتري كل ما يطلبه البيت. يقول لها إن هذا المشوار أصبح من عاداته الصباحية، وإنه رياضة جميلة، وإن من يستنشق هواء الليل الطريِ، ذلك الهواء الذي نسيه الليل قبل أن يرحل يغسل نفسه من الداخل. يغسل الصدر والرئتين والقلب بهواء بكر لم تدس فيه أقدام النهار الغليظة ولم تلوثه أتربة الناس.

يضحك ويقول إن الأيام القادمة أكثر من تلك التي تمضي، وأن أولاده أمامهم أيام كثيرة ينزلون فيها، يشترون ويحضرون، ويستريح هو، إنه يتعب الآن، لكي يشعر بطعم الراحة في الأيام القادمة، التي يحسب لها بالثانية والدقيقة والساعة واليوم وانتظار مجيئها. وكنا نحن نحسب الأيام في انتظار أن نشيل بعض الحمول عن والدنا.

لكن الذي لم يتوقعه والدنا، ولم تعمل أمنا حسابا له. أن أيامنا جاءت ومعها مرض الرحيل. سافر واحد منا، فأصابت الآخرين العدوى. مرض جديد اسمه الرحيل والترحال.

في أيام طفولتنا، كانت أمي تقول:"الغربة تربة" وكان الاغتراب يتساوى في نظرنا مع الحياة في القبر. ولكن الثوابت ضاعت وأتى زمن المتغيرات. أصبحت المتغيرات ثوابت. والثوابت متغيرات. رحلنا حتى قبل أن نحقق بعض الأحلام البسيطة والساذجة لوالدينا.

الصباح الأول، فكرت أن أحقق لأمي وأبي، ما لم أحققه في سنوات الغربة. وعندما قمت من نومي مبكرا، سألت أمي عن السلالي والكسرولة وعمي منعم بياع الفول على العربة التي يوقفها عند أول الشارع الذي نسكن فيه.

نظرت أمي إليّ بدهشة، وعندما أدركت أنني عائد لتوي من سنوات الغربة. قالت لي:

- كانت أيام.

أكدت لي أن الإفطار كله جاهز في البيت. وإنه حتى أبي لا ينزل لكي يقوم بهذا المشوار الصباحي القديم. لسبب بسيط أن منعم بائع الفول لم يعد يقف بالعربة التي يوجد في منتصفها قدرة الفول النحاسية. إنه يأتي وقت الغروب ويبقى حتى منتصف الليل بدلاً من الحضور فجراً. ويبيع سندوتشات

الهمبرجر بدلاً من الفول. ولكي تشتري الجرجير الأخضر والبصل الأخضر لابد من الذهاب إلى أقرب سوق إلينا.

في البيت ثلاجة كبيرة – قالت أمي – وهي بديل للذهاب إلى السوق كل ساعة. إنهم يشترون ما يحتاجون إليه مرة واحدة في الأسبوع. أليس ذلك أفضل؟ سألتني أمي. فكرت أن أقول لها إنه أسوأ. ولكن لأنها كانت سعيدة بحالها. وترى أنه أفضل ما يحلم به الإنسان، قررت ألا أدخلها في مناقشات صباحية حول الحال. أجلت ذلك إلى ما بعد.

سألت نفسي: ما الذي تغير، أهلي أم أنا، أم أن الزمن لم يعد هو الزمن؟ يبدو لي أن الناس لم تعد هي نفس الناس، والهواء ما بقي هواء. والليل أصبح نهاراً والنهار تحول إلى ليل وسعادات الأيام الجميلة التي مضت لم تعد بقادرة على إسعاد الناس أبداً.

قلت: فلنؤجل كل هذا إلى ما بعد رحلتي المصيرية. ولكن هل يعود الذي مضى؟ هل يتوقف ما هو آت؟

قالت أمي وهي تبتسم ابتسامة أنارت وجهها:

– ذكرتنا بالذي مضى.

قالت ذلك وتنهدت وخيل إليّ أن الـزمن أوشـك أن يعود وهي تتنهد.

مائدة الإفطار، كانت تخلو من كـل مـا تصـورت وجوده. وكان الطعام الآخر كثيراً بدون حد. وكان الزحـام والتسابق نحو الطعام يؤكدان لي أنه ليس إفطاراً، بقدر ما هو مناسبة اجتماعية لا تتكرر كثيراً. كان الطعام أنواعـاً مـن الجبن ليس من بينها الجبن الأبيض المصري. وأنواعا مـن المربات المصنوعة في كل بلاد العالم، وخبزا أبيض غريبا، قال لي والدي إنه مصنوع بشكل آلي. نفضته أمامي فلم ينزل منه شيء. فأكد لي والدي أنه يخلو حتى من الردة القديمة.

حدث بداخلي ما يمكن أن أسميه خيبة الأمل، وربما اتضح هذا على وجهي. ولكني حاولت إخفاء هذا الإحسـاس عن أمي وأبي. حاولت أن أبدو سعيدا بالطعام الذي أمـامي. ولكن قلوب الأمهات تدرك ما لا تراه الأعين. اقتربت منـي أمي. وقالت إن كان الطعام لم يكن هو مـا انتظرتـه فكـل المطلوب مني أن أعذرها. تم إعداده بسرعة هذا الصـباح. قالت لي:

- لا تنس أنك فاجأتنا بحضورك.

كانوا يتمنون حضوري في كل لحظة – شرح والدي كلام أمي – ومع هذا فالمفاجأة كانت تامة. وفي الأيام القادمة ستحقق لي أمي كل ما أطلبه. الأيام القادمة، سرحت مع الكلمة. قلت في خاطري إن الأيام القادمة بكل ما فيها تترتب على الرحلة الهامة التي سأقوم بها، بعد الرحلة تبدأ الأمور كلها من جديد.

قال لي والدي، إنه حتى الخبز يستورد في هذه الأيام. وفي فنادق الدرجة الأولى – وما أكثرها – وفي مطاعم الدرجة الأولى – وما أكثرها – يوجد خبز مستورد ثمن الرغيف الواحد منه جنيه مصري كامل.

كانت لوالدي طريقة في الحديث والحكي. تعرض عليّ أمور البلاد وكأنها تندرج تحت بنود الغرائب والعجائب.

وقبل أن أمد يدي إلى الطعام، بسملت، أمسكت بأول رغيف، وقبل أن أقسمه إلى نصفين، قالت أمي إنها تشعر أن هذا الصباح هو ميلادي الثاني. نفس شعورها الذي عاشته يوم ولادتي. الفارق الوحيد إنها الآن ترى الأمور جيدا

وتعبها. في الميلاد الأول، كانت هناك آلام الولادة والتعب. أما الآن فالألم الوحيد ناتج عن إحساسها الزائد بالسعادة.

من يرحل يدخل قبر الغربة، ومن يعد من هناك. آه قالت أمي بطريقتها الخاصة:

- من يشد الرحال مفقود، ومن تكتب له العودة مولود.

اليوم ميلادي الثاني. ضحكت، وقالت إنها تتمنى أن يكون الميلاد الأخير. أي إنها لا تحب أن تفكر في آلام فراق جديد وسفر جديد لي. شعرت بالرغبة في البكاء، ولكني أجلت نزول دموع العين حتى أقابل محبوبتي.

توقفت رغبة والدي في الحديث عندما عرف أنني أنوى النزول. طلب مني البقاء في البيت يوما أو يومين، حتى أستريح وأريح جسمي من عناء السفر والترحال، وأحط على أرض الوطن فعلا. قلت له إن لدي بعض المشاوير العاجلة.

- مشاوير؟!

تساءل والدي وأخرجني سؤاله من حالة التوهان والسرحان. تساءل والدي، واحترت ماذا أقول له، من

الصعب أن أبوح له بسري، مهما حدثت حالة من المكاشفة، فلابد وأن يبقى لكل إنسان ركن فيه أسراره التي يحتفظ بها لنفسه، ومهما جاءت أوقات البوح والفضفضة والحكي، فلابد وأن تبقى مساحة تضع فيها مالا يمكن قوله للآخرين. حتى لو كان الآخر أبا أو أماً.

عندما أصل إلى محبوبتي، لن تعذبني هذه المشكلة، سأقول ما بداخلي، أتكلم وأفضفض، تجري الكلمات على لساني، مثلما كانت تجري مياه النيل. ذكرني هذا بنيل زماننا. كانت المياه تجري فيه مثل الخيل، وكانت الخيل بنية اللون.

سألت نفسي: متى ترمح الكلمات مثل الخيول؟ متى تنفك عقدة اللسان؟ يبدو أن هذا لن يحدث إلا عندما أقف بين يدي محبوبتي.

- مشاوير؟!

أفقت على تساؤل والدي من جديد. وقبل أن أفكر في إجابة، ولأن والدي يرغب في أن يبدو كأنه يعلم حتى خفايا النفوس. قال لي لابد وأن معي رسائل وأموال وأشرطة تسجيل لأصدقاء الغربة. سأوصلها إلى أهلهم.

وجدت المخرج في التفسير الذي قدمه والدي. ولذلك قلت له إنني قد أسافر اليوم إلى مدينة قريبة وقد أعود آخر النهار، وقد أعود في الغد.

صاح والدي منادياً على أمي من المطبخ. قال لها: إن ابنك الذي عاد من غربة السنوات، يفكر في السفر مرة أخرى قبل أن يشبع منه أحد. سألتني أمي: وهل تعبت أنا منهم حتى أسافر؟ وقبل أن أجيب عن السؤال، بسؤال. قبل أن أسألها: وهل تتعب اللقيا مثلما يتعب البعاد؟ قالت لي أمي، إنني لن أدرك مشاعرهم نحوي ما لم أتزوج وأعاني ما يعانون منه. إن قلب الأم ينفطر على ابنها ولكن هذا الابن، مادام أنه ليس أباً – فإن قلبه يكون قطعة من الحجر.

وبطريقة أمي في الحديث، قالت:

- قلبي على ابني انفطر.

وقلب ابني عليّ.

حمدت الله أن أمي مازالت أمي. كما هي مشبعة بهذه العواطف الإنسانية التي لم يعد لها وجود. كنا نتناوب الكلمات مع الطعام، وكانت اللقمة أحياناً تقطع الكلمة الواحدة،

تحولها إلى أحرف غير متصلة، وكان الرذاذ يتطاير مع الكلمات والضحكات الصافية.

وكان هذا الجو يذكرني بالأيام التي مضت. الأيام التي تركتها وسافرت، وكنت أتصور أنني سأعود لكي أجدها هنا. مع أنني كنت واهماً. ذهبت وعدت لأجد أن الزمن أيضاً ذهب. الفارق أنني ذهبت ثم عدت، ولكن الزمن الذي يذهب لا يعود أبدا. يحمل بداخله المسرات والأحزان ويمضي، يرحل، يسافر، ينأى، يبتعد. يوغل بعيدا عنا.

سمعت صوتي وأنا أتكلم، وشربت صوت أمي، الذي يبدو مثل هديل الحمام في البناني. وأبي أصبح صوته واهنا ضعيفا. فقد تدفقه القديم. ومع هذا ظل يتكلم. حاولت الإمساك باللحظة، ولكنها كانت تجري أيضاً، مثل كل اللحظات.

تنبهت من أفكاري. كنا نضحك نحن الثلاثة، ضحكة أعادتنا إلى ألفة حياتنا القديمة التي افتقدناها. والتي نحاول بصعوبة بالغة إعادتها إلينا مرة أخرى.

شبعت، ربما كانت المرة الأولى منذ سنوات، التي أجلس فيها هكذا، إلى مائدة. ولا أتناول طعامي خطفاً، وأنا واقف في مطبخ ضيق واطئ السقف مدخن الحوائط، أو في

أحد المطاعم السريعة في تلك البلاد التي تجري دائماً على عجل.

شعرت بحالة من الاسترخاء، وعندما جاء الشاي تمنيت لو أنني قضيت يوما هنا حتى آخره. وتمنيت لو أنني بقيت هنا حتى آخر أيام العمر. ولكن لم يكن هناك مفر من مشواري الذي سأقوم به بعد قليل. فكرت – في جزء من اللحظة – أن أؤجل رحلتي إلى الغد. أن أجلس وأتأمل وأن أنزل بعد قليل لكي أرى مدينتي، وأن أحاول وصل ما انقطع بيننا. ولكن جال في خاطري أنني إن لم أقم برحلتي في هذا اليوم. ربما لا أقوم بها بعد ذلك أبدا. ربما جرت أمور منعتني من القيام بالرحلة. قد تحضر إليّ محبوبتي فلا تحدث المعجزة ولا يتم اللقاء الثلاثي. لقائي معها والنيل. لا سأذهب إليها اليوم. وسأبدأ رحلتي الآن.

خرجت إلى الشارع، إنه الصباح الأول، وهي المرة الأولى التي أشاهد فيها مدينتي بالنهار. كان الوقت مبكرا ورحت أبحث بعيني عن مكان عربة الفول المدمس التي كانت تقف فيه. ومحل الكشري فاكتشفت أنه تحول إلى بوتيك.

بحثت عن تاكسي، ولكن الأمر كان صــعباً. ســألت عن الطريق. قالوا لي إن الرحلة رحلتان. والطريق طريقان. رحلة بالأتوبيس وأخرى بالتاكسي. يذهب بي الأتوبيس إلــى مكان ومنه أركب التاكسي. حتى أصل إليها. رحلة ثم أخرى وأخيراً أجد نفسي هناك. سألت عن طريق أركب فيه النهر. قالوا لا يوجد هذا الطريق. سألت عن الأتوبيس الذي يمكــن الوصول منه إلى موقف التاكسي الذي يوصــلني إلــى بلــد محبوبتي. اضطررت لسؤال أكثر من شخص. سألت أول من صادفني ولكنه لم يرد علي. خيــل إلــى أن صــوتي كــان منخفضا وأنه لم يسمعه. اتجهت إلى شخص آخــر. رفعــت صوتي ووصله. ولكنه توقف ونظر إليّ ثم انصرف دون أن يبدو أن سؤالي قد وصله. والثالث قال لي إنــه لا يعــرف، والرابع أكد لي أنه غريب عــن المدينــة، اضــطررت أن أستوقف أحد المارة. أمسكته بيدي ثم سألته. وهذه المرة فقط سمعت الإجابة، فشرح لي وهو يبدو مستعجلا الطريق إلــى محطة الأتوبيس. نظر في ساعته مرتين وهو يشرح لي، مما أشعرني أنني أخّرته عن أمور هامة.

كان الأتوبيس مزدحما. وقد كان مزدحما قبل سفريِ، ولكن الزحام الآن يخلو حتى من الإنسانية، لم أشم روائح العرق القديمة ولم أسمع القفشات والتعليقات والنكات، ولم أشاهد شابا يقوم من مكانه لشيخ عجوز ولا رجلا يقف من أجل أن تجلس مكانه امرأة. شممت رائحة توتر مكتوم. لا يعرف كيف يعبر عن نفسه.

حتى الناس تغيرت. سألت نفسي ولم لا تتغير الناس؟ هل هم محصنون ضد التغيير؟ لاحظت أن كثيراً من الشباب صغار السن ولكن لحاهم طويلة، لم تحلق هذه اللحى من قبل. جلد الذقن لم تجر عليه المُوسَى أبداً. الوجوه تحيط بها ذقون والذقون أنواع، بعضها أبيض يبدو أنه نساه الليل حول الوجه. وبعضها الآخر يبدو مغسولا باللون الأبيض. يبدو مثل القطن والحليب وسحاب الصيف في سماء الله العالية. يرتدون ملابس بيضاء من القدمين حتى الرأس. وفي أياديهم سبح من أشكال وألوان وأحجام مختلفة. لاحظت أن هناك شابات كثيرات تغطيهن الملابس تماما. بعضهن لم يبدُ منهن سوى العينين فقط.

عرفت بعد ذلك أنهن محجبات وأن الحجاب أيضاً أنواع. منهن من تسمى محجبة ومنهن من تسمى منقبة وفي كل الأحوال فالمرأة تبدو كتلة متحركة من الملابس. وعلمت أن هؤلاء الشبان والشابات يشكلون جماعات مختلفة. وأن هذه الجماعات تملأ بلادي.

قبل أن أركب الأوتوبيس، كان الموقف غريباً. زحاما وبشرا وأصواتا تحاصر طبلة الأذن حتى تكاد أن تخرقها. كان الموقف عبارة عن حالة من الفوضى المنظمة فكانت اللافتات والإعلانات معلقة في كل مكان.

وفي كل مكان، أينما اتجهت نظراتك تفاجأ بالمياه الغازية على شكل أهرامات. قلت لنفسي: لقد سافرت والأهرامات في الجيزة فقط، وعدت لأجدها، ولكن في كل مكان. الأولى كانت من الحجارة. وهذه من صناديق المياه الغازية.

حالة من الحصار، حصار المياه الغازية، الذي يكاد أن يشعر الإنسان بالخوف من الغرق في بحر من المياه الملونة. أصناف كثيرة وغريبة خرجت إلى الوجود. انتهت

رحلتي الأولى، وكان عليَّ أن أبدأ الرحلة الثانية والأخيرة. وأصل بعدها إلى محبوبتي.

لم أسأل أحدا هذه المرة. تتبعت اللافتات والأسهم حتى وصلت إلى موقف التاكسي. كان الذين يحضرون إلى المدينة بالآلاف. أما الذين يغادرونها فعددهم قليل، وكانت التاكسيات تحضر محملة بالناس، ولكنها تنتظر وقتا طويلا حتى تجد الركاب الذين تتحرك بهم مسافرة.

سألت نفسي: هل يهاجر الناس كلهم إلى المدن الآن؟ في زماني وقبل سفري، كانت الإقامة في الريف متعة، وكان أسعدنا من له أقرباء في الريف.

سمعت من يقول:

- البلاد كلها تهاجر. إما إلى هنا، أو إلى الخارج، إنه زمن الهجرة إذن.

وجدت تاكسياً ينتظر ثلاثة ركاب لكي يتحرك. نظرت إلى قائمة الأسعار المعلقة قبل دخولي السيارة. أفهمني السائق، أن هذا الكلام المكتوب يقول ما يريد، ولكنه سيحصل على أجرة أخرى. فالتسعيرة التي يحددها موضوعة

منذ عامين، والأسعار هي أسرع ما يجري في هذه البلاد. أسرع حتى من الطائرات النفاثة، ومن سرعة الصوت نفسه.

نظرت حولي في الموقف، زحام وبشر ورائحة أطعمة رخيصة وسجائر ودخان في الجو.

اكتشفت أنني أستطيع رؤية الهواء الذي أتنفسه بالعين المجردة. الهواء كثيف شبيه بالغيوم وأن الأشجار قد رحلت. قالوا إن الهواء الذي أصبح مثل الغيوم قتلها.

نظرت إلى السيارات التي تقف في الموقف. في انتظار الركاب، افتقدت تاكسيات الأرياف القديمة، حيث موديلاتها تعود إلى زمن الحرب العالمية الثانية، لم أجد سيارة واحدة منها، كانت كل السيارات موديلاتها حديثة جدا، ربما كانت أحدث من التاكسيات المستخدمة في البلاد التي عدت منها.

وكانت السيارات تحمل أسماء شركات وزعتها بالتقسيط الذي قال لي أكثر من سائق، إنه تقسيط غير مريح. وفي كل سيارة راديو ومسجل، وإن كان الراديو لا يستخدم أبدا. المسجل هو الذي يعمل. ومن يحاول الاستماع إلى الغناء يكتشف أنها حالة من الصخب والضجيج أكثر من

كونها غناء. كان من الصعب فهم الكلمات أو استيعاب اللحن.

انتظرت حتى اكتمل العدد، وكانت حالة من الصمت تفرض نفسها على الركاب. كل واحد يعطي ظهره للآخر. هناك من دس وجهه في صحيفة كانت معه، ومن فتح ورقة وأخرج منها سندوتشات وبدأ يأكل دون أن يعزم على الجالس بجواره، ومن أرسل في طلب كوب شاي أو زجاجة من أهرامات الزجاجات الغازية التي تطاردنا.

أعترف أنني عائد من بلاد يتصرف أهلها بهذه الطريقة، في كل لحظة من حياتهم. يسكن كل واحد منهم داخل نفسه، ولا يطل من أي شرفة على الآخرين، ولا يسمح للآخرين بالنظر إليه، أو رؤيته من الداخل، ولكن هذه الطريقة في التصرف تبدو طبيعية هناك. ولكن هنا، لا.

قلت لنفسي، غريب أمر بلادي. منذ أن عدت إليها والكل يشكو من ضيق ذات اليد والعوز والاحتياج. جميع من قابلتهم يتحدثون عن إنهم لا يشبعون من زمانهم ولا من مكانهم، ومع هذا. منذ أن نزلت من المنزل، حتى الآن، وأنا أشاهد حالة من تدفق الأموال في الأيادي، لم أشاهد مثلها من

قبل، تتحرك الأموال في الأيادي، بسرعة، بلد قرر سكانه أن يتخلصوا من كل ما معهم من الأموال، لكـــي يبـــدأوا فـــي الحديث عن الاحتياج المالي. هكذا بدت لي الدائرة المفرغة. يلهثون ويجرون طلبا للمال، ولا يحتفظــون بـــالأموال فـــي أيديهم أي فترة من الوقت، تقرص الأموال أياديهم إن بقيـت معهم، ولهذا يتخلصون منها بسرعة.

يشترون ما يحتـــاجون ومـــا لا يحتـــاجون أيضـــاً. يكتشفون بعد قليل أن الأموال تبخرت، وهكذا تبدأ بكائيـــات العوز والاحتياج والبحث عن المـــال مـــن جديـــد. الـــدائرة أصبحت قصيرة، ولكي يتم الجري عبرها، فالكـــل يتجنـــب العمل والعرق. المطلوب لهف المال بأي وســـيلة والعـــودة بسرعة والإنفاق بنفس السرعة.

حتى الناس الذين كانوا في السيارة، والذين كانوا في حالة من السباق في إنفاق الأموال. عندما تكلمـــوا، خرجـــت الكلمات لكي تقول إن الجنيه لم يعد جنيها ولا حتى قرشـــا. الأموال أصبحت مثل الكحول ما إن تفرد الجنيه حتى يتبخر فورا. وكأنه لم يكن في اليد.

كانوا يشكون وينفقون في نفس الوقت. لدرجة أنني لم أفهم حقيقة موقفهم. لقد ضاع الحرص القديم والناس تريد أن تتخلص من الأموال، وكأن وجودها معهم يسبب لهم حالة من الإزعاج الذي لم أفهمه.

اكتمل العدد، وبدأنا البحث عن سائق السيارة لكي تتحرك بنا. قال لنا أحد الصبية، الذين يعملون في تلميع السيارات، إن الأسطى في الغرزة. ولأنني كنت أتعجل السفر والوصول إلى محبوبتي فقد نزلت من السيارة ومعي أحد الركاب.

سألت الصبي عن مكان الغرزة، فأشار إلى مكان بالقرب من دورة المياه ومسجد كبير مقام في الموقف، وإن كان بناؤه لم يكتمل بعد. قال الصبي، إنه توجد لسائقي كل مجموعة من السيارات التي تذهب إلى مدينة معينة غرزة خاصة بهم. يجلسون فيها حتى يأتي الركاب.

في الطريق إلى الغرزة، عرفت من الراكب الذي نزل معي، أن الجلوس في الغرزة له فوائد أخرى كثيرة. ففي كل غرزة امرأة، نناية حقيقية. أنثى ضبابية، لا تراها بصورة حقيقية لأنها تطل عليك من عالم مثقل بالدخان

والحكايات والغبار. الملابس صارخة الألوان، تكشف عما تحتها. ملتصقة بالجسم. والأذنان فيهما حلق مخرطة يصل حتى الكتفين. وفي الأنف دبلة، وفي القدمين خلخالان، واحد من الفضة في القدم اليسرى، والآخر من الذهب، في القدم اليمنى، وهي تختار عشيقها من بين أكثر السائقين قدرة على الإنفاق.

سألت عن الموقف القانوني من حكاية الغرز هذه. فأكد لي الراكب أن المسئولين عن الموقف يذهبون إلى هذه الغرز أيضاً. وأنها تستخدم في العمل. ذلك أن أي سيارة لكي تخرج من القاهرة، لابد لها من تصريح خروج، وهذا التصريح من المفروض منحه بالدور. ولو طبق نظام الدور بكل دقة لأنتظر السائقون فترات طويلة. ولكن من يدفع يحصل على تصريحه فورا، بصرف النظر عن ميعاد حضوره إلى الموقف ودوره. يوجد عرف عام، أقوى من كل القوانين في الموقف هنا.

فالمكان الذي يدفع فيه المعلوم، ويمكن الحصول على التصريح هو الغرزة. إنها أكثر الأماكن أمنا. لكي تتم فيه

هذه المبادلة، التي تكتسب شرعيتها رغم أنها منافية للقانون، مع أن الكل يرضى بها، وينفذها بسعادة.

سألته:

- والمسؤولون!؟

رد عليَّ:

- أذن من طين والأخرى من عجين.

سألته من جديد:

قال لي:

- هي التي أطلقت على الموقف أنه أصبح دولة داخل الدولة.

كان ما قاله الراكب لي صحيحا، إذ إننا عند الخروج من الموقف لم نحصل على تصريح من المكتب المخصص لذلك. ولكن عند الباب الذي في آخر المدينة، أخرج السائق تصريحا كان معه، أعطاه لأمين الشرطة ومضى.

بعد بحث وجدنا السائق خلف كشك بعيد، يدخن الجوزة، كان تائها في غيبوبة اللحظة التي أحضرناه منها. أتى وهو يسبب ويلعن. قال إن لحظة الحظ لا يمكن أن

تعوض وتساوي العمر كله. كان يؤكد أن المخ قد بدأ يونون، وأن ذهنه بدأ يشعشع.

لعن السائق الزمن الذي فرض عليه هـذه الشـغلانة الغريبة التي تخرجه من لحظات السعادة الحقيقية، وما أقلهـا في الحياة.

كان السائق يتكلم، تخرج الكلمات مـن فمـه بـبطء وبتثاقل غريبين، بعض الأحرف يتم مطها بصورة مضحكة، فتصبح الكلمات مستطيلة الوجه، وبعضـها الآخـر تتآكـل حروفه. لدرجة أن فهم ما يقوله لم يكن سهلا في البداية. وقد احتجت إلى بعض الوقت حتى أفهم كلماته بسهولة.

كان السائق يتكلم، يتذوق أحرف الكلمات ويمتصـها قبل أن ينطق بها. وكنت أتساءل عن مدى قدرة هذا السـائق على أن يقود السيارة بنا. سألت الراكب الذي كـان يجلـس بجانبي. كيف نسلم هذا السائق أرواحنا؟ قال لي إن الناس هنا تسمي هذا النوع من التاكسيات: النعـوش الطـائرة، قلـت لنفسي: إنها نعوش فعلاً، ولكن من يقـدر علـى الطيـران والتحليق في هذه الأيام؟

كان السائق ما يزال يتكلم، كان يبدو أنه يكلم نفسه، ولا يعنيه سوى نطق الكلمات والاستماع لصوته فقط، بصرف النظر عن استماع الآخرين إليه. تمنى أن يأتي اليوم الذي يملك فيه تاكسيا يحضر له سائقا يعمل بنسبة من دخله ويتفرغ هو لشؤون حياته دون أن ينغصها عليه أحد، ويأخذه من لحظات النشوة والعشق.

قال السائق إن أمله الوحيد، أن يجلس أمام الجوزة باقي أيام عمره، دون أن ينادي عليه أحد. قال إنه حرام أن يقضي عمره في العمل، ولا حتى نصف عمره أو ربعه. إن الإنسان لم يخلق من أجل العمل فقط.

وكان السائق قد تمكن من الجلوس وراء عجلة القيادة بصعوبة، ومن جديد خفت على نفسي وعلى الركاب. وسمعت بعض من يجلسون بجواري يقرءون الفاتحة، ورأيتهم وقد أصبحت صفرة الموت مثل الصبغة التي تغطي وجوههم، بدوا كما لو كانوا يستعدون لما هو آت.

حاولت أن أتشاغل بالحديث مع من يجلس بجانبي، الذي زاد من مخاوفي عندما قال لي إن كل السائقين يفعلون هذا، والغرزة التي شاهدتها في الموقف يوجد منها الكثير. إما

في الموقف الذي تبدأ منه رحلة السيارة، أو في الموقف الذي تصل إليه، أو على الطريق. وهذه الأخيرة هي الأخطر وخطرها يزداد في الليل، حيث تصبح لها أدوار أخرى، غير الشرب والشم وخلافه.

مررنا – والسائق على هذه الحالة – على عساكر وضباط وموظفين يقفون على حواجز كثيرة. يبدو أنه نظام موضوع من أجل ضمان نظام تحرك السيارات أثناء مرورها بمواقف باقي المدن والمحافظات.

كانت السيارة في الشوارع، تبدو كل واحدة منها وكأنها محطة متحركة من الصخب والضجيج، موسيقى غربية، موسيقى جاز، والسيارات يقودها صبية مازالت بقايا لبن الأمهات على شفاههم، وفي بعض الأحيان يقود السيارات أطفال صغار، تعلموا بالأمس فقط طريقة المشي دون الاستناد إلى أحد. ثم تعلموا في نفس الوقت – تقريباً – قيادة السيارات.

أصابتني دهشة، عندما عرفت أن القانون يمنع ذلك صراحة، وأنه ضمن الأوراق التي تقدم من أجل الحصول على رخصة القيادة، لابد من شهادة المعاملة العسكرية. إن

هؤلاء الصبية والأطفال يقودون سياراتهم بالبركة، ولا يتم ضبطهم إلا في حالة وقوع حادث ما.

أما الجري هكذا بالسيارات، فلا أحد يتعرض لهم أبدا، لأنه من المعروف أن من يركّب ابنه الصبي سيارة بخمسين ألفا من الجنيهات لابد وأنه من الأغنياء، والغني مسنود إما بماله أو بمعارفه أو بمن يقدر على شرائهم.

قلت متسائلا:

- أولاد الذوات؟

قال:

- لا.

- أولاد الأغنياء؟

- لا.

- أولاد من إذن؟

- أولاد محدثي النعمة.

جاء القرش فجأة، قرش لا يعرف صاحبه من أين جاء، ولا كيف جاء، ولذلك يريد أن يتخلص منه بسرعة، لأن القروش التي لا تشم رائحة عرق الناس من أجلها،

تصبح بعد أن توضع في الجيوب مثل البراغيث، تقرص من يضعها في جيبه.

قلت لنفسي، ما أوسع المسافة بين الأموال التي تدفئ الإنسان والقروش التي تقرصه. لاحظت أن كل هؤلاء الأطفال والصبية لا يقودون سوى سيارات فاخرة، موديلات حديثة، وأنهم أكثر من واحد، رغم أننا كنا نمر في وسط حي أقرب إلى الأحياء الشعبية. سألت نفسي: كيف تبدو الصورة في أحد أحياء الأغنياء؟ لا. عدت واستعملت الكلمة التي قالها جاري: أحد أحياء محدثي النعمة؟

استيقظ الوطن بداخلي من جديد، قرأت الأسماء. وحاولت معرفة الأماكن. هذا البلد في الشمال، وتلك المدينة في الجنوب، وهذه المحافظة في شرق البلاد، وتلك في غربها.

هنا صحراء، وهناك صحاري، ولكن في الوسط جنة تسيل منها المياه والزرع والناس. نهر يجري عكس كل أنهار هذا العالم، يبحر شمالا والهواء عكسه يجري جنوبا. وأرض وزراعة ومصانع. وعرق الناس يملأ الوادي كله. الصحراء والماء، الطين والرمل. النباتات الخضراء، أو التي

كانت خضراء، لأن لونها تغير، أصبح الأخضر الرمادي، أو الرمادي الأخضر أو الرصاصي الأخضر، لِكن، فهنا بلدي وعلى هذه الأرض ناسي وقد عدت إليهم، وسأربط قدمي إلى ملح هذه الأرض وترابها، وأربط رموش عيني إلى سمائها.

قرأت ملامح بلدي، أغمضت عيني على صوت هدهدة السيارة، وحاولت أن أتخيل البلاد التي سافرت إليها والتي لم أرها. حاولت أن أرسم شكل الوطن بعين الخيال، تمنيت لو أنني كنت قادرا على أن أعانق الوطن في الحلم. ولكني عجزت حتى عن أن أحلم، كان الحلم مستحيلا، والهواء كان ملوثا بأصوات تحاصرني من كل مكان، كانت هناك موسيقى الديسكو، الموسيقى التي تركتها ورائي، وإن كانت صاخبة مشروخة.

في الناحية الأخرى، سمعت حلقات الذكر والتواشيح الدينية، صوت السلامية، وصوت رنة السبحة على العصا الحديدة لفضيلة الشيخ والدق على الطلبة والرق. وفي خلفية الصوت، كان هناك صوت الذكر الرتيب، الذي يهز أركان الدنيا بهدوئه وسرمديته.

- الله حيّ، الله حيّ، الله حيّ.

وكان هناك صوت مطرب جديد، لم أسمعه من قبل، كانت كلمات الأغنية حسية، تصف جسم امـــرأة بتضاريســـه وتفاصيله الدقيقة، عرفت، فيما بعد، أنـــه مطـــرب العصـــر والأوان، وأن معدل بيع شرائطه تعدى حتـــى معـــدل بيـــع شرائط أم كلثوم نفسها.

أعترف أن صوته كان فيه الكثير من طعـــم مصـــر التي تركتها وسافرت، ولكن الكلمات كانت فـــاجرة واللحـــن سوقيا بدائيا.

حتى الهواء تلوث، بكل هذه الأصوات التـــي توجـــد حالة من الصخب والضجيج اليومية، ترهـــق طبلـــة الأذن، وتصيب العقل بالدوار. وكان سائقو الســـيارات يســـتخدمون الكلاكسات بصورة منفرة، وفي السيارة التي كنـــت أركبهـــا كان السائق يستخدم كلاكس السيارة، لدرجة أنني خيل إلـــيّ أحيانا أن هناك سيارة وراءنا هي التي تستخدمه، ويبدو لـــي أن ضغطه على الكلاكس، هو نوع من التعبير عن حالة من التوتر بداخله.

وفي أول شارع اتجهنا إليه بعد الموقف، كان هنـــاك ميكروفون في يد شخص ملتحٍ ضخم الجسم، وجهه غابة من

الشعر، كان يتكلم في الميكروفون، كان ينذر النـــاس بالنـــار والعذاب في الآخرة، وكان يهاجم من يشترون عرض الـــدنيا الزائل، الذين أغراهم ما في هذا العالم الفاني، مع أن النعـــيم الحقيقي هو ما في الآخرة.

كان يذكِّر الناس أن دنيا البقاء هي الأولى بالاهتمـــام والعمل، وأن ما نحن فيه من مظاهر في سبيله إلى الفناء.

سألت عنه، هل هو خطيب متطوع؟ أم هـــو الآمـــر بالمعروف والناهي عن المنكر؟ قال لي الجالس بجواري إن الاشتراكيين يريدون العودة إلى حكم البلاد، وإن وجود هؤلاء ضمان للتوازن المطلوب من أجل سلامة الـــبلاد، قلـــت لـــه ولكني في الغربة ولا أعرف الكثير عـــن الاشـــتراكية فـــي مصر. مصمص الرجل شفتيه، وقال لي إنه كلام على الورق فقط. ولكن في الواقع، فهؤلاء بيدهم كل فرص العمل الآن.

سألني الرجل:

- مع من أنت؟

لم أفهم السؤال، أوضح:

- مع هؤلاء أو مع الآخرين؟

سألته:

– وهل المسألة بهذا القدر من التحديد؟

لم يجب عن سؤالي ولكنه قال:

– المعركة قادمة، تلك مسألة مؤكدة.

سألته:

– بينهما؟!

– طبعاً.

– والحكومة...الدولة ؟

قال لي شارحا:

– نأمل أن تكون في موقف المحايد، لا تدخل طرفا في ذلك الصراع.

تدخل شخص ثالث في الحديث:

– هي التي تمول هؤلاء لكي يقفوا في وجه الآخرين.

لاحظت أن اللذين تحدثا معي كان في نبرة كلامهما قدر لم أحبه من الحياد؛ تصورت أنهما يتحدثان عن بلد آخر، غير وطنهما. كنا نتحدث عن بلادي، وإن كانا قد ذكراها بضمير الغائب. ولم أتمكن من جعل الضمير الغائب حاضرا، فتعجبت من هذا الحال.

رأيت أثناء الطريق، حركة غير عادية في بناء المساجد، وكانت هناك كنائس كثيرة تحت الإنشاء، بل إن معظم العمارات الجديدة مكتوب عليها أن الدور الأرضي مخصص لكي يكون مسجدا.

قال لي الجالس بجواري:

- إن من يخصص الدور الأرضي لكي يكون مسجدا يحصل على أولوية في صرف مواد البناء المدعومة.

عندما كانت السيارة تتوقف عند الإشارات أو تهدئ من سيرها بسبب الزحام الشديد، كان يهجم على نوافذ السيارة أطفال صغار في أياديهم دفاتر إيصالات، أو صناديق من الخشب خضراء اللون، مغلقة بإحكام من كل النواحي، ما عاد فتحة صغيرة لكي يدخل منها ما يدفعه الإنسان من المال، وكلهم يطلب تبرعات لبناء مساجد.

قال من كان يجلس خلفي، إن البلاد تعيش حالة من الانتعاش الديني أو العودة إلى النبع الصافي مرة أخرى. وإن ذلك يحدث الآن في كل بلاد العالم تقريباً.

سمعت ما قاله، وإن كنت قد رأيت بلادي بعين أخرى، رأيت الوطن وكأنه أكل وجبة متناقضة، أطعمة من

الصعب أن يتم هضمها مع بعضها، وأن الوطن مشغول هذه الأيام بهضم هذه الوجبة الغريبة، وأن عملية الهضم قد تستغرق وقتا أطول مما كنت أتصور.

الجالسون حولي، بدأوا يتكلمون، تحدثوا عن سعر الدولار في السوق السوداء، وعن اختناقات المرور، وعن جنون الأسعار، كل السلع الآن أصبحت مجنونة الأسعار، وليست الطماطم فقط. تحدثوا عن أزمة المساكن الرهيبة، سمعت ذلك ولم أفهمه، فقد شاهدت حركة بناء لم أر مثلها في أي مكان آخر من العالم.

سألت أحدهم فقال: إن الشقق المغلقة في البلاد تكفي وتزيد، ولكن من يملك المال؟ تلك هي المشكلة، تحدثوا عن تأخر سن الزواج، وعن الزواج على الورق فقط، وإن كنت لم أفهم ذلك، وعن الحوادث الغريبة والحكايات العجيبة التي تحدث.

شعرت بالتعب يسري في جسمي، حاولت أن أنام لكن سرعة السيارة وزحام السيارات الرهيب واحتمالات الحوادث في كل لحظة والصخب والضجيج الذي يحتل مساحة السيارة من الداخل، والصخب والضجيج القادمين من

الخارج، وحلقات الغبار في الشوارع. كل هذا جعل النوم مسألة صعبة، قررت أن أغمض عيني فقط وشعرت ببعض الراحة مع حركة السيارة المتعبة.

خرجنا من المدينة، وصلنا إلى الأراضي الزراعية، أصبحنا على مشارف جسر عال، على اليمين نهر النيل وعلى اليسار مساحات من الأراضي الزراعية، آسف الأرض التي كانت زراعية، ولكنها استبيحت الآن واستفرد بها، فيها كميات كبيرة من الطوب الأحمر، وحالات بناء كثيرة.

قلت لنفسي إن سعار الرغبة في البناء قد يصل إلى هنا. نظرت، أمامي مبان، بيوت، عنابر، محلات، مخازن. كان الجالسون في السيارة يتحدثون عن هذه المباني، هذه عنابر تربية دواجن، تلك مزرعة أبقار فريزيان، وذلك معمل لصناعة البلاط، أما التي هناك فهي فابريقة لصناعة الطوب الأحمر، والتي بجوارها سلخانة للذبح، أحسست أن مساحات الخُضْرَة الصغيرة والمحدودة أصبحت محاصرة بكل هذه المباني الكثيرة.

مشروعات كثيرة، أقيمت من أجل المدينة القريبة، أقامها سكان هذه المدينة، التهمت الأرض، وتاهت مساحات الخُضْرَة. انقبض قلبي. والغريب أننا كلما ابتعدنا عن المدينة وتوغلنا في قلب قلب الريف كانت حركة البناء تزداد كثافة.

أذكر أنني لم أشم رائحة هواء الريف، ولم أر الأرض المروية حديثا، ولم أنظر أمامي فأجد رحابة اتساع الحقول تشد النظرات لكي تعانق الفضاء البعيد.. كانت المباني مثل الحواجز الجديدة وما أكثر الحواجز التي شاهدتها.

-٤-

من هنا بدأ الكون.

في هذه النقطة، كتبت البشرية الكلمات الأولى في أسفار العشق والمحبة، لابد وأن جدنا الأكبر آدم، قابل جدتنا الكبرى حواء في نفس هذه البقعة من الأرض، وعلى الرغم من أن الكلمات تعجز عن وصف المكان إلا أنني سأحاول ذلك الآن.

أحاول نقل إحساسي به إلى من قد يقرأ هذه الكلمات في يوم من الأيام. جمال المكان ليس هو الجمال الذي نتحدث عنه، والهدوء أعمق من الهدوء الذي نقضي عمرنا ونحن نبحث عنه ونحلم به.

والألوان ليست هي نفس الألوان التي تهاجم حدقات الأعين في كل لحظة تمر من أعمارنا. كأن هذا المكان قطعة من الجنة نزلت إلى الأرض. صورة مصغرة نراها ونحن على قيد الحياة قبل لحظات الحساب العسيرة. خيل إلىّ، أن ما أشاهده جزء من حلم أراه وأنني نائم دون أن أدري. ولكن

الألوان أمامي كانت واضحة وأحلامنا لا تكون ملونة في العادة.

جلست بعض الوقت أنظر، أتذوق المرئيات على مهل. سألت نفسي: أين كان هذا الجزء من بلادي؟ كيف لم أره من قبل؟ كيف تاه عني وكيف تهت عنه؟ ومن الذي فعل هذا بنا جميعا؟

لم أجد صعوبة في التعرف على الفيللا التي تسكنها محبوبتي، يقول الناس هنا إنها فيللا مهندس الري. لم يذكر لي أحد هنا اسمه، يبدو أن عمله أهم ما فيه، والناس هنا تعرف الآخرين ببساطة. فالبلد تقف في منتصف المسافة بين القرية والمدينة. الشوارع بلا أسماء، والبيوت صغيرة وأعلى بيت فيها من دورين فقط، والحواري غير مستقيمة. ولكن المياه التي توجد في كل مكان حولنا تجعل الهواء مشبعا بالماء وتعطي الخضرة التي تفرش الأرض كلها لونا لم أره سوى هنا فقط.

لابد وأن محبوبتي هنا، هذا مؤكد. أما كونها قد تزوجت من غيري، فأنا أرفض من الأساس ذلك، ربما كانت

حيلة منها لكي تحضر هنا. حتى نلتقي نحن الثلاثة معا أنا وهي والنيل.

قلت لنفسي: لابد وأن الفيلا التي تعيش فيها هي لمهندس الري في المنطقة، ربما يؤجرها مفروشة. ومن لا يؤجر مفروشا في هذه الأيام؟ ولذلك يقولون عنها فيلا مفتش الري. سأسأل عنها.

وأقول: فيلا مهندس الري. وإن كنت أثق أن ذلك مجرد عنوان، اسم للمكان فقط، دليل للوصول لا أكثر. وهناك سأجد محبوبتي تعيش في انتظاري.

عندما نطقت – لأول مرة – جملة فيلا مهندس الري، وقفت الجملة في زوري، شرقت، أشرفت على الموت، بحثت عن ماء أشربه واتجهت إلى أقرب زير فيه ماء، تشاءمت، ولكني قلت لنفسي، في مثل هذه الرحلة لا يجب أن يقيم الإنسان أي حساب للتفاؤل أو التشاؤم.

سأجد محبوبتي وأنا متأكد من هذا، سأجدها في انتظاري، رحت أحسب الوقت الذي غبته عنها، عددته أولا بالسنوات، أحد عشر عاما وشهرا ينقص بعض الأيام. في مثل هذه الأيام من أحد عشر عاما وأيام لا تصل إلى الشهر

رحلت، سافرت. عقد كامل وأكثر مضى، ربما كـــان فركـــة كعب صغيرة من عمر الأوطان ولكنه في حياتنا نحن الأفراد فترة طويلة، يبيضّ فيها الشعر الأسود، يصبح أبيض مغسولا مثل السحاب أو القطن، تفض فيها بكارات البنـــات. تترهـــل الأجساد المتماسكة، تضعف دقات القلوب وتزوغ الأبصـــار وتزغلل العيون وتلتوي الأقدام وتصـــاب الأيـــادي القويـــة برعشة غريبة.

حتى الوطن ملأت التجاعيد وجهه، وظهرت عليـــه أعراض لم أعرف لها حتى الآن اسما ولم يتوصـــل حكمـــاء زماننا إلى دواء له. كل هذا ومحبوبتي في الانتظار.

سألت نفسي: كم شهراً مضى؟ كم أسبوعاً؟ كم يوما؟ كم ليلة؟ وكم ساعة مستطيلة الوجه؟ وأهم من هذا كله: كـــم ثانية مرت عليها وهي في الانتظار؟

كانت الحسبة صعبة، تاه عقلي بين الأرقام، وعجزت حتى عن متابعة الأرقام وهي تكبر. تذكرت أنني نسيت آلتي الحاسبة، التي لم تكن تفارقني في زمن الغربة. نسيتها فـــي البيت. واكتشفت أنني نسيت القدرة علـــى الجمـــع والطـــرح

والقسمة وأنني حتى لو حاولت ذلك الآن فلابد مـــن وجـــود ورقة وقلم.

قلت لنفسي: لماذا أبدو متسرعا على رزقي؟ لو أنني حسبت كل هذا الآن بمفردي ماذا يبقى لي لكي أحســبه مـــع محبوبتي، عندما تتم اللقيا. إذن لأؤجل كل هذا حتى يصـــافح الوجه الوجه ويعانق القلب القلب وتناجي الأنامـــل الأنامـــل وتتحدث حواسنا الأخرى مع بعضها، تهمس، تقـــول مـــا لا نستطيع نحن أن نقوله بألسنتنا البشرية العاجزة.

قال من سألته، إن فيللا مهندس الري ومفتش الري – وهما شخص واحد – الهندســـة شـــهادته والتفتـــيش عملـــه وكلاهما – الشهادة والعمل – يدوران حول الـــري، لحظـــة إخصاب الأرض العطشى بالماء. قال من سألته، إنها ليســـت فيللا واحدة، إنهما فيللتان. بجوار بعضهما، كل واحدة تؤنس وحشة الأخرى، وإن كان لكل واحدة استخدام مختلـــف عـــن الأخرى. فيللا لسكنه، والأخرى مغلقة، وهما معا فوق مثلث من اليابسة تحيطه المياه من كل ناحية.

وهما عبارة عن سكن مفتش عموم الري الإنجليزي، في زمن الاحتلال البريطاني لمصر. وإنه كان يوجـــد بـــين

الفيللتين.. مقياس للنيل. وفي الزمن الذي مضى كانت فيللا للسكن وأخرى للعمل. ولأسباب غير مفهومة أصبحت الاثنتان للسكن والعمل معاً. ثم نقل العمل إلى بر الناس بعد ذلك.

قال من سألته إن مكتب مهندس الري هنا في العمار. في بر الناس ووسيلة الانتقال هي القارب في الذهاب والعودة.

قلت لمن سألته:

- هذا شاطئ الناس ولكن هناك شاطئ من؟

نظر إليّ من سألته بدهشة، قال لي... ومن ذهب إلى هناك حتى يمكنه أن يقول؟ لم يذهب أحد إلى هناك أبداً. كل واحد يتكلم عن الشاطئ الآخر إنما يستخدم خياله في الكلمات. الوحيد الذي يذهب إلى هناك ويعود هو مهندس الري. ولكن من يجرؤ على الكلام معه في مثل هذه الأمور؟!

أشار إلى الناحية الأخرى وقال:

- هناك سر من الأسرار.

ولأنه سر من الأسرار في أكثر ما يقال عنه لدى الناس. لكل إنسان هنا شاطئه الخاص وجزيرته التي لا يعرف عنها أي إنسان آخر أي شيء.

قلت إنني من أقارب مهندس الري. سأذهب إلى البيت وأبقى في انتظاره حتى يعود. سرت الدهشة، عكّرت ملامح الوجوه التي أمامي. قالوا لي إنني أول قريب له يظهر بشحمه ولحمه. إذن هو مثل كل الناس، له أقارب ومن بلد ولديه أهل وعزوة.

المهندس؟! إنهم يقولون المهندس، إذن هناك مهندس، ما تصورت أنه غير حقيقي يبدو أنه حدث. تزوجت محبوبتي ،ما قاله لي زميلي في المدينة يبدو أنه صحيح. سرى النمل في عروقي وجرت الفئران في عبي. ولكني حاولت ألا يلحظ من يحدثني أي تغيير على وجهي. المفروض أنني قريب المهندس أو بلدياته. ولذلك سأتمكن من العبور والذهاب إلى الفيللا، وهناك أعرف كل ما أريد معرفته.

لدي من الآن يقين من أن محبوبتي لا يمكن أن تكون زوجته. وحتى إن ذهبت إلى هناك ووجدت امرأة في بيتــه فمن المستحيل أن تكون محبوبتي.

ربما كانت أي امرأة مــن نســاء الأرض جميعهــا. ولكنها لن تكون محبوبتي أبدا. هذا يقين لا يقبل الشــك، وإن وصل إليه الشك، فلن أثق حتى في وجودي نفسه بعد هذا.

قالوا لي إن المهندس طراز نادر وفريد من البشــر. يركب القارب من الفيللا إلى المكتب في الثامنــة صــباحا. تضبط عليه ساعتك. وفي الثالثة بعد الظهر يعود إلى البيــت ولا يخرج منه إلا في اليوم التالي، وإنه لم يحدث أن ذهــب معه أي إنسان إلى الضفة الأخرى.

طلبت منهم أن يدلوني على مكان القارب. قالوا لي، كل المطلوب مني هو السير بحذاء شاطئ النيل إلى أن أجــد القارب وهو بدون مراكبي، لأنه مربوط بجنزير غليظ مــن الحديد مثبت في البرين. ومن يركب القارب عليه أن يحركه من خلال الجنزير.

مشيت في اتجاه المكان الذي يوجــد فيــه الجنزيــر والقارب. كان الوقت هو الضــحى، مــرّ الصــباح وجــاء

الضحى. قال لي من كان يحدثني، إن كان القارب في ناحيتنا فهذا معناه أن المهندس عبر النهر وذهب إلـــى مكتبـــه. وإن كان القارب في الناحية الأخرى فهو في البيت، وإن كان من المؤكد أنه ذهب إلى عمله. ولو وجدت القارب في الناحيـــة الأخرى لا مفرّ من الانتظار لحين عبور أحد به. ولن يكون هذا الأحد سوى المهندس. طلب مني محدثي ألا أتعب نفسي بالنداء، لأن الهواء هنا يمـــتص كـــل الأصـــوات. ســـأتعب حنجرتي بالنداء ولكن لن يصل أي صوت إلى البر الآخـــر أبداً.

كنت في الضفة الشرقية لنهر النيل، ولكن محبـــوبتي لم تكن في الضفة الغربية للنهر. كانت في جزيرة والجزيرة في قلب قلب النهر. أما الضفة الغربية للنيل، فلم أكن أراها، لأن الجزيرة كانت عريضة ومتسعة ومن حولها يصبح النهر نهرين. النيل نيلان إذن، وقديما قـــالوا لـــي فـــي حصـــص الجغرافيا: إن الجزيرة مساحة من الأرض محاطة بالماء من كل جانب، أما شبه الجزيرة – قال المدرس –: فالماء يحيط بها من كل جانب إلا جانبا واحدا. ودلل لنا على ذلك بسيناء. وقال إنها شبه جزيرة.

كان حولي خليط من البشر، فلاحون، أفندية، حرفيون، متسكعون، باعة، مشترون، متفرجون، دواب، حمير وأبقار وأغنام وطيور وكأن كورنيش النيل عبارة عن سوق. فيه حالة هستيرية من البيع والشراء، ولكني كنت غائباً عن كل ما حولي.

لم أسأل أحدا، لأن الطريق كان سهلاً، والقارب كان في الضفة الشرقية للنهر – إنها الضفاف دائما – هناك من حضر به إلى هنا. يوجد إذن مهندس للري. أتى بالقارب لكي يذهب إلى عمله. صحيح إذن ما سمعته، وحاولت أن أكذبه. تزوجت محبوبتي والزوج مهندس للري. تصل المياه – من خلال عمله – إلى الأرض الشراقي فترتوي ثم تحمل وتصبح البذور المدفونة في رحم الأرض أعواداً خضراء.

كان من الصعب عليّ، تصديق هذه القصة الغريبة عن زواج محبوبتي، ولكن هاهي العلامات تقول إنه يوجد هناك مهندس ري. تجنبت السؤال عن محبوبتي. طعم المفاجأة عندي ألذ ألف مرة من معرفة تأتي من الآخرين. أما مهندس الري، ربما كان شقيقها، قد يكون واحداً من أهل

الحظوة أتى معها إلى هنا لكي يقبل الناس فكرة إقامتها وسط المياه حتى لحظة حضوري.

ربما يكون مهندس الري هو نفسه محبوبتي، تبدل ملابسها وتغير ملامحها، تسترجل، بعد أن هجر الرجال البلاد، تتحدى باسترجالها رجولة الغائبين. ورجولة الحاضرين الغائبين. تذهب إلى العمل وتعود منه. ولأنها محبوبتي، وخوفاً من أن ينكشف أمرها اعتبرت إقامتها هنا سراً من الأسرار التي لا يعرفها أحد.

ربما، ربما، ربما. كنت أضرب أخماساً في أسداس، وقفت حائراً وتائهاً على ضفاف الشك وأود العبور إلى ضفة اليقين ولكنني وسط هذا الشك كله كنت متأكداً من أمرين: أولهما، أن محبوبتي هناك في الجزيرةَ التي تقع بين الضفتين، وثانيهما: أن محبوبتي في انتظاري، بكر، لم تدهس أي قدم قلبها ولم تتحسس أي يد جسدها ولم ينكشف عليها أي رجل سواي ولم تكتحل أي عيون برؤياها قبلي. وإنني أنا القادم من قبور الغربة، سأكون رجلها الأول وأيضاً رجلها الأخير.

نزلت من القارب، حركته بسهولة، سمعت خرير المياه ورأيت مياه النيل لأول مرة عن قرب، لم تكن بنية اللون ولكنها كانت أقرب إلى اللون الأخضر المائل إلى الزرقة. كانت المياه راكدة ولم تكن تغطي الشاطئ، قليل من المياه يجرى في قاع النهر ببطء. ولحظة تحرك القارب لم أشاهد السمك القريب من الشاطئ وهو يفر مذعوراً من الحركة، والشاطئ كان مساحة من الأرض مغطاة بالخضرة وأشجار الصفصاف تميل على المياه، وفروعها بأوراقها الطويلة تنغمس في المياه من جديد، تشرب منها. ذكرني شكلها بشعر محبوبتي عندما كانت تستدير لكي تعطيني وجهها.

ها هو النيل، الطرف الثالث في موعدنا. لا، إنه الطرف الثاني، أنا ومحبوبتي طرف واحد. والنيل هو الطرف الثاني.

كان النيل متعباً ومخنوقاً، سألت نفسي عمن خنقه، كان عاجزاً حتى عن أن يغسل نفسه، وكانت المياه شبه متوقفة فيه. سألت نفسي مرة أخرى: كيف يفيض النيل وهو على هذا الحال؟ هل تزغرد مياهه وتتلاطم أمواجه؟ ويأتي

الماء البني الغامق ذو الرائحة المثيرة. والتي تتعدى آثار إثارتها الجنسية الرجال والنساء، إلى إناث وذكور الحيوانات والطيور.

ربما كان ما أشاهده حالة من السكون العارض والعابر. لديّ وعد من النيل أن يفيض وأن يغسل بفيضانه بر مصر كله، وأنا ومحبوبتي في انتظار أن يفي النيل بوعده لنا. كل من سألتهم في ديار الغربة قالوا إن النيل لم يعد قبل إلا ووفى بوعده.

قالوا لي: إنه في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، عندما كان المصريون يصلون ويقدمون له عروسته السنوية، كان يتأخر في الوفاء بوعده من باب الدلال والعشق فقط، دلال العشاق والمحبين، ولكنه كان يأتي دائما، كان يفي، فما بالك عندما يعد النيل؟

نظرت إلى النيل من جديد، إذن هذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة، سكون ما قبل لحظة الهياج وتحقيق الوعد، كمون تأتي بعده الأمواج، ثم يغني الماء في النيل، رفرف قلبي في صدري مثل حمامة، كانت حبيسة وجاء وقت طيرانها. شعرت للمرة الأولى – منذ عودتي – بسعادة

حقيقية وصادقة. شعرت أنني على مشارف لحظة تحقيق الوعد.

تحرك القارب بسهولة، ابتعدت عن شاطئ الناس والضجيج والأصوات. والضوضاء، فأصبح الصمت مؤكداً. غمست يدي في النيل وتذوقت طعم مياهه. كنت أبتعد عن بر المخلوقات الكثيرة والتي تفوق أي قدرة على العدّ، واقتربت من بر محبوبتي بسرعة.

كان الجنزير الحديدي يخرج من المياه مبللاً، وقد علقت به نباتات وأعشاب من باطن النهر وأسماك ميتة وفضلات المدن. كان الجنزير يستقر في باطن القارب ومع الحركة الرتيبة ينتقل إلى المياه مرة أخرى.

القارب كان صغيراً لا يتسع إلا لشخصين فقط. أحدهما في المقدمة والثاني في مؤخرة القارب. توقفت بعد قليل، أوقفت حركة الجنزير فتوقف القارب في الماء. رحت أبحث في القارب عن أثر من آثار محبوبتي، أو عن آثار من يركب هذا القارب. كان القارب قديماً، حالته تؤكد أنه استعمل من قبل سنوات ومع هذا كان من الصعب العثور على أي علامات تقول إنه كان هنا إنسان منذ قليل.

بحثت، فتشت في الزوايا والأركان، لم أكتف بالنظر ولكني رفعت بعض الأشياء من مكانها لعلي أجد إشارة ما. وعندما لم أجد أي علامات تركها الآخرون بدأت أتشمم القارب. لكل إنسان رائحته التي يتركها حتى في الأماكن التي يعبرها سريعاً.

لم تصل إلى أنفي سوى رائحة الخشب والماء عندما يتلازمان طويلا، عطانة أوعفانة ربما. ولم أسمع سوى صوت المياه وهي تضرب في القارب عندما كان يتمايل هنا وهناك من تأثير حركتي بداخله.

وقفت في منتصف القارب، نظرت ناحية الجزيرة، خيل إليّ أن رائحة محبوبتي تهب عليّ من هناك، تسللت الرائحة إلى أنفي بهدوء، حتى دون أن أدري كيف تم هذا.

دققت النظر في الجزيرة، هلت عليّ ملامح محبوبتي من أركان الفضاء الأزرق المغسول. قلت لنفسي: هنا أرض محبوبتي. نظرت في القارب من جديد، ربما ركبت محبوبتي هذا القارب مرة وحيدة عند حضورها إلى الجزيرة للمرة الأولى، ثم ظلت هناك لم تخرج منه أبداً. ولن تخرج منه

سوى معي. وربما عبرت النهر – عند حضورها في قارب آخر غير هذا القارب، الذي أقف في منتصفه الآن.

خيل إليّ أن القارب مصنوع من الورق، ساورتني بعض المخاوف، ولكنها تبددت سريعا. كنت سعيداً لأنني أقترب من جزيرة محبوبتي، كانت الأرض الخضراء في الجزيرة تستدير، أشجار وحقول ومن بين الأشجار كانت تبدو إحدى الفللتين، بدأت أخمن هل هي فيللا محبوبتي أم الأخرى؟ أيٌّ الفيللتين عامرة بوجود محبوبتي فيها، وأيهما مهجورة من أنس محبوبتي؟!

لمت نفسي لأنني لم أسأل عن علامات تميز فيللا محبوبتي عن الأخرى، رحت أبحث عن علامات الحياة فيهما. ولكني أجلت الأمر حتى أرى الفيللتين معاً، ثم أقارن.

مرَّ قليل من الوقت، ظهرت الفيللا الثانية. بدأت أنظر، أبحث عن باب مفتوح أو نافذة مواربة أو غسيل منشور أو إيريال تليفزيون أو طيور تحوم حول الفيللا أو دخان خارج من مدخنة.

لم أتمكن من رؤية أي فروق بين الفيللتين. مددت يدي أتحسس جيبي الأيمن، أبحث عن هدية محبوبتي التي لم

أتذكرها سوى هنا. رأيت في المنام خلال نومي المتقطع أني أخذت هدية محبوبتي من بين الهدايا التي أحضرتها ووضعتها في جيب بدلتي اليمنى، فكان لدي يقين غريب أنني فعلت هذا لدرجة أن الأمر اختلط علي، فلم أعد أدري هل فعلت ذلك في اليقظة أم في المنام.

اكتشفت أن هدية محبوبتي لم تكن موجودة، في الجيب الأيمن ولا في الجيب الأيسر ولا في أي من جيوبي كلها، وما أكثر الجيوب السرية والعلنية في ملابس زماننا.

رحت أتذكر أين نسيت هدية محبوبتي، فأدركت في حالة من الوضوح المؤلم، أنني تركتها في حقائب هدايا الأسرة بالأمس. نسيت أن أعزلها بمفردها، من المؤكد أن عملية التوزيع قد شملتها في ليلة الأمس، وأنها تحولت إلى غنائم وسبايا في معركة توزيع الهدايا التي لم أحضرها وما كنت طرفاً فيها. ولكني سمعت فقط أصواتها عندما كنت بمفردي في الحجرة التي قضيت فيها ليلتي.

هدية محبوبتي الآن مع أحد أفراد أسرتي، من المستحيل استعادتها منه. شعرت في وقفتي، في منتصف القارب الذي كان يتلكأ في منتصف النهر، لأنني توقفت عن

تحريك الجنزير، أقول شعرت أن قدماً غليظة تدوس في قلب قلبي.

فكرت في العودة لشراء هدية أخرى لمحبوبتي، ولكني خفت من ضياع الوقت، وربما بددت فرحة اللقيا إن ذهبت من أجل الهدية. قد أعود وهي ليست بمفردها، فأؤجل الأمر كله إلى الغد، ومن يدري ما قد يأتي به الغد؟

إن ما بيني وبين محبوبتي أكبر من كل هدايا العالم، والأيام القادمة أكثر من التي مضت، وسأحضر لها كل هدايا الكون، قلت لنفسي، من الأفضل أن نشتري الهدية معاً، نتشاور ونتكلم ونتدارس ونبحث ونقف أمام فترينات العرض ونجري في الشوارع ونلهث في المدن ونجفف عرقنا في المحلات الضيقة ونشاهد أنفسنا أمام المرايا الكبيرة.

فكرت هكذا، لكي أخرج سريعاً من حالة الإحباط التي وجدت نفسي أتدلى إليها سريعاً، كالبئر التي بدون قرار، وكالبحر الذي ليس له شاطئ آخر. من الصعب وصف حالتي بعد اكتشاف فقدان الهدية. شعرت أنني مربوط بحبل من الحرير يمكن أن ينقطع في أي لحظة، غضبت، خفت، حزنت، عدت من آخر العالم للقاء محبوبتي، وقضيت الأيام

السابقة على عودتي وأنا أبحث عن هدية لها، ثم أنسى الهدية بعد وصولي مباشرة إلى البلاد، وقبل أن أعرف الطريق إلى مرساي ومحطتي الأخيرة. ماذا جرى لي؟

أذهب إليها ويد أمامي والأخرى ورائـــي، وكلاهمـــا خالٍ إلا من الهواء. تشاءمت، فاجــأني هــاجس غريـــب أن رحلتي هذه لن تنتهي على خير أبداً. لم يكن أمامي مفر سوى الاستمرار، لا أملك غير المضي إلى الأمام. لابد من الذهاب حيث توجد محبوبتي.

ولكن ماذا أقول لها عن عدم وجود الهدية؟ هل أكذب عليها؟ أقول لها – وأنا أتذوق طعم الكذب على طرف لساني – إنني فكرت وفكرت وقررت أن ننزل معاً إلى المدينة لكي نشتري الهدية معاً؟

لم يحدث من قبل أن اشتريت لها هديةً في غيابهـــا، كانت تقول لي إن جزءاً من طعم الهدية يكمن في المشـــاركة في شرائها، في الوقوف أمام المحـــلات والفرجـــة والأخـــذ والعطاء والتردد الجميل ثم الحسم والشراء أخيراً.

لن أكذب عليها، إن بدأت كلماتي معها بالكـــذب لـــن يعرف الصدق طريقه إلى لساني. بعد أن نلتقي سأحكي لها.

أقول الواقعة كما جرت. ثم أقول لها إن أكبر هدايا عمرنا ألا نفترق بعد ذلك أبداً.

استأنفت حركتي من جديد، أمسكت بالجنزير الحديدي وحركته فسار القارب وظللت هكذا حتى وصلت إلى جزيرة محبوبتي، ربطت القارب في المكان الذي يرسو فيه. وجاء مرسى القارب بين شجرتين معمرتين. خيل إليّ أنهما عاصرتا بدء الخليقة وأنهما زرعتا في أيام التكوين الأولى.

وصل القارب إلى مرساه، ولكن متى أجد أنا مرساي؟ ربطت القارب حتى نعود به معاً، أنا ومحبوبتي بعد قليل، نرجع، نعبر النهر إلى الضفة الشرقية بمفردنا، ربما عدنا معاً، ربما قضينا الأيام الباقية لنا في هذا العالم لا نفترق لحظة واحدة، ربما، ربما. اكتشفت أنني أجري في دروب التخمينات. لمت نفسي. تساءلت: لِمَ أخمن هكذا وأنا على بعد خطوات من يقين العمر كله؟ لِمَ؟

نزلت على الشاطئ، أحسست وقدماي تغوصان في البساط الأخضر، الذي كانت حبات الندى تنزل من فوقه، أن هذه الأرض بكر، وإن قدميّ هما أول قدمين لإنسان يخطو

على هذه الأرض. وأن الهواء لم يتنفسه أحد، وأن السماء لم تقع عليها عين إنسان قبلي.

نظرت إلى الأشجار التي حولي، كنت أحاول حساب عمرها بالسنوات، كنت أبحث عن أكبرها سناً وأتساءل: أين يا ترى الشجرة التي أكل منها جدنا آدم فخرج من هذه الجنة؟ يقولون إن جدتنا الكبرى حواء هي التي دفعته إلى هذه الثمرة المحرمة. دعهم يقولون، حوائي أنا التي في انتظاري، لم تدفعني إلا إلى الخير. ولم تحاول دفعي على محرمات أبداً.

في جنة الجنات أنا، وآدم طرد من هذا المكان. قد يختلف الناس على المكان الذي طرد منه آدم، وربما حسبوا الأمر على أساس من علامات الجغرافيا وحقائق التاريخ، هذا لا يعنيني.

في جنة الجنات أنا، كل ما عكر صفائي أن آدم طرد من هنا، وأنني من نسل آدم الذي طرد. وأن محبوبتي التي أذهب إليها وعدت من آخر الدنيا لكي ألقاها، من نسل حواء التي يقولون إنها كانت السبب في طرد آدم من هنا.

تسلل خاطر غريب إلى نفسي، قد أطرد من هنا أيضاً، لا يعنيني السبب في طردي ولكن الخاطر أزعجني،

حاولت أن أطرده. إن كانت محبوبتي هنا، فقد جاءت من أجل أن تنتظرني، إقامتها في جنة الجنات لن تبدأ سوى معي.

كنت أخطر بإحساس الإنسان الأول في هذا المكان، وكان السكون مستتباً وكان الصمت مستقراً حتى بين كل حركة أقوم بها والحركة الأخرى.

تقدمت من المبنى، كانت إحدى الفيللتين مفتوحة وكانت الأخرى مغلقة يغطيها العنكبوت، اقتربت من الفيللا المفتوحة ببطء، خشيت أن يكون هناك كلب ضخم يحمي المكان من الغرباء، أو أن يكون هناك خفير مسلح. سرت على أطراف أصابعي، وشعرت بحضور قوي لحركتي. سمعت صوت قدمي على الحشيش الأخضر، وتصورت عندما رأيت ظلي أن هناك شخصاً ما يتبعني. توقفت فتوقف الظل فأدركت الأمر. عدت إلى إكمال سيري، كنت أسير وكأنني أطير.

أشجار وخضرة، ماء وهدوء، عالم من الألوان ومن البهجة التي تفرض نفسها على كل حواسي، اقتربت من الفيللا، لم أصادف إنساناً ولا حيواناً في سيري حتى الآن. لا

أستطيع القول إنني لم أصادف جناً، من الصعب رؤياهم. وأنا ليس مكشوفاً عني الحجاب، ربما انكشف الحجاب عني، ورفعت الغشاوة الأرضية عن عينيّ بعد لقاء المحبوب. لم يكن في السماء طير، كانت عالماً من الزرقة اللانهائية الممتدة حتى ما بعد القدرة على الإبصار.

ذكرتني الفيلا بمباني البلاد التي عدت منها، السور الخارجي من الحجارة، التي أصبحت رمادية اللون، في وسط السور من الأمام بوابة من الحديد مفتوحة على آخرها، وهناك مسافة قصيرة من البوابة حتى مدخل الفيلا. كانت جدران الفيلا مبنية من طوب بني محروق، كانت حدود كل طوبة واضحة للعين، وسقف الفيلا من خشب الزمان القديم على شكل جمالون.

والجمالون ذكرني بالمطر، والمطر دفع إلى الذهن ذكريات البلاد التي عدت منها. لابد وأن الأمطار هنا غزيرة، تغسل هذا الجزء من بلادي الذي لا يحتاج إلى غسيل أصلاً، فهو في نظافة قلوب الأطفال لحظة ولادتهم.

توقفت مكاني، رحت أتخيل المكان والدنيا تمطر، انبثق المشهد في ذهني جميلاً، المطر وقطع الثلج والملابس

التي تلتصق بالأجسام من كثرة المطر، والجيوب التي تمتلئ بذلك الملح الجميل الذي ينزل مع المطر، بدلاً من أموال زماننا التي لم تعد لها أي قيمة، والتي تخلو الجيوب منها طوال أيام الشهر.

تمنيت لو أننا التقينا – أنا ومحبوبتي والنيل – في يوم ممطر. يوم تفرغ فيه السماء حمولتها من مياه الأمطار التي تختزنها لمدة عام. لو أننا التقينا في زمن المطر كان الماء سيغلق اللقاء كله، ماء من الجهات الأربع، ماء من تحتنا وماء من فوقنا.

اعترف أنني أخطأت في توقيت الحضور، قلت لأحضر والتقي بمحبوبتي والنيل في أيام الربيع، الأيام التي ترتدي مصر فيها ثوبها الأخضر الزاهي، ولم أكن أتصور أن خضرة مصر أصبحت رصاصية اللون، رمادية الإحساس.

من جديد فكرت في العودة، وتأجيل اللقاء حتى يأتي زمان المطر مع نهاية العام، ولكني خشيت إن عدت ألا أحضر مرة أخرى، وربما لا ألتقي مع محبوبتي، ولهذا قررت السير.

هأنذا على باب الفيللا، وقبل الدخول توقفت، سأشبع عينيّ من المرئيات. من يدرى، ربما لا أراها مرة أخرى. حلمت وأنا واقف، كما يحلم النائم، أن لدى – بدلاً من اليدين – جناحين، وأنني أفردهما وأطير، أحلق في الفضاء اللانهائي. وأرى الجزيرة كما لو كنت أركب طائرة، وحولها النيل، الضفة الغربية والضفة الشرقية. يختلف المشهد كثيراً عندما تراه من الجو، من مكان عال. والتحليق في الجو مسألة منعشة، لا حد لجمالها. القدرة على الطيران والانطلاق حتى قلب السماء المعطر بالكافور، مسألة تفوق الخيال.

الغريب، أنني منذ أن حصلت على وعدي من النيل بالفيضان ولقاء محبوبتي، وأنا أحلم في الغربة بالطيران والتحليق في الأجواء العالية. ما من مرة أغلق فيها عينيّ حتى أبدأ الطيران.

أذكر أن النيل سألني:

– ألم تتبول في مياهي؟

وبدون أن أفكر أجبت:

– أبداً.

لم يكن سؤاله الأول، هو السؤال الأخير.

سألني:

- ألم تتبرز في مجراي؟

هتفت:

- وهل هذا معقول؟

أما سؤاله الأخير:

- ألم تبصق على وجهي؟

قلت من أعماقي:

- وكيف أفعل هذا؟

واختفى النيل من أمامي، في الحلم، وكان الحلم في بلاد الغربة، وأنا في حالة من الذهول من وقع التساؤلات على نفسي.

دخلت من باب الفيللا، في مواجهتي سلم، يصعد بدرجة انحدار متعبة لمن يصعده، ومخيفة لمن ينزل منه. أشفقت على محبوبتي من صعوبة صعود هذا السلم. والنزول منه كل يوم.

صعدت السلم ببطء ولأنه مصنوع من الخشب، فقد أحدث صعودي صوتاً، كان كفيلاً بأن يجعل أي إنسان يستمع إليه حتى ولو كان في سابع نومة. وصلت إلى منتصف السلم

ولم يتحرك أحد. خيل إلى أن البيت لا يوجد فيه صريخ ابن يومين وأنه مهجور منذ فترة، وأن الناس الذين حدثوني عن سكن المهندس هنا، كانوا يحكون قصصاً غير حقيقية.

قد تكون محبوبتي في مكان آخر، كان من الصعب عليّ تصديق هذا الخاطر، محبوبتي لابد وأن تكون هنا. لا يوجد مكان آخر في العالم يصلح لأن تكون محبوبتي فيه، سوى هذه الجزيرة، كان بداخلي دليل لا يقبل الشك، يؤكد لي أن محبوبتي هنا، قريبة مني.

أكملت صعودي، وعند نهاية السلم، كانت هناك خمسة أبواب، لخمس غرف، وإحدى هذه الغرف، ولعلها غرفة الصالون، كانت مفتوحة على آخرها. الباب مفتوح والنوافذ مفتوحة والغرفة متسعة، لم أشاهد في حياتي من قبل غرفة بهذا القدر من الاتساع، ومن نوافذها، كانت تبدو الناحية الأخرى من الجزيرة مساحة من الخضرة وصفٍ من الأشجار وشريط من النيل ثم الضفة الأخرى، الضفة الشرقية للنهر، حيث البر الذي يعيش فيه الناس. أغمضت عينيّ وفتحتهما من جديد، خيل إليّ أن المنظر الذي شاهدته كان

عبارة عن لوحة على جدار الغرفة، ولكن الشجر كان يتحرك والماء كانت تحدث به بعض التموجات.

خرجت من مقارناتي فجأة، كانت محبوبتي تقف في منتصف الحجرة، كان ظهرها لي ووجهها ناحية النافذة، عرفتها حتى دون أن أرى وجهها. من لا يتعرف على المحبوب بدون حواسه الخمس لا يكون عاشقاً، من لا يشم رائحة المحبوب ولو بعد سنوات من البعاد غريب في ديار العشق والمحبة.

رأيت محبوبتي، أصبح ظهرها جزءاً من خضرة الأشجار وزرقة السماء ولون ماء النيل، إن الزمن الذي لم أتصور مجيئه قد جاء أخيراً. ها هو الماء. ماء النيل بالذات وليس أي ماء آخر. والخضرة، الخضرة الخارجة من بر مصر وليس أي أرض أخرى، والوجه الحسن، بل الوجه الأحسن.

فضلت الانتظار لبعض الوقت كي أرى محبوبتي وهي لا تراني، حتى أقفز عبر السنوات التي مضت وأعود بالوعي والإحساس والقلب إلى أيامنا، قبل أن أسافر، وقبل أن تأتي أيام البعاد، وقبل أن يبحر كل منا بعيداً.

مرّ وقت قبل أن تستدير محبوبتي، كانت واقفة في نفس مكانها وعندما استدارت التقت أعيننا أولاً. ثم جاءت لحظة.. لحظتان.. لحظات، وكانت كلها مشحونة، وارتعش الهواء منتشياً وثمل الجو.

بحثت عن كلمات لكي أقولها، ولكني لم أجدها، وهي نفسها لم تتكلم، قرأت في عينيها أنها عرفتني. جاءت أصعب اللحظات في رحلتي دون مقدمات، حمدت الله أن محبوبتي كانت في الفيلا بمفردها، لم يقدمني لها طرف ثالث. النيل من أمامنا والنيل من خلفنا. النيل من شمالنا، والنيل من جنوبنا. نحن في أحضان النيل إذن.

طال الصمت، سعدت لأنني لم أنطق بكلمة واحدة، لم أقل لها ولم تقل لي. القلب سكة مفتوحة على القلب. وقلوب العشاق أسرار لم يفك أحد طلاسمها بعد. جزر بكر، مناطق مجهولة، أرض لم تدس أقدام أي إنسان فيها من قبل.

عرفتها وعرفتني، عرفتها من صوت تنفسها ومن رائحة غيمة الهواء التي تحيط بها، وعرفتني هي بعد عشر سنوات من البعاد حتى دون أن تنفرج شفتاي عن حرف واحد.

مازالت محبوبتي كما كانت، لم تغيرهـــا الســـاعات والأيام والأسابيع والشهور والسنوات. علينا أن نستأنف مـــا جرى، ونوصل ما كان، وكأننا تركنا بعضنا بالأمس فقط، ثم التقينا في اليوم التالي مباشرة، وأن ما فرّق بيننا نهار واحـــد وليلة واحدة فقط.

الصمت يطول، ولأن الصمت طـــال، أحسســـت أن النمل يسري في دمي وارتعشت قدماي واشتاقت العينان إلى دموع الأيام التي مضت، بحثت عن الكلمات ولكنها هربـــت. جفّ ريقي وأحسست فـــي شـــفتي بجفـــاف مثـــل جفـــاف الصحاري. كنت أرغب في الخروج من هذا الموقـــف بـــأي صورة.

خطوت نحو محبوبتي، وبالقرب منها لم تعد قـــدماي قادرتين على حملي. كدت أن أقع علـــى الأرض، وشـــعرت بحبات عرق باردة فوق جسمي. رميت نفسي فـــي أحضـــان محبوبتي، وعندما أبدت دهشتها من تصرفي لم أقـــدر علـــى الحديث. فقط أجهشت بالبكاء.

كم كانت تبدو القدرة على البكاء صعبة في الأزمنة التي مضت. كنت أتصور أن مآقي العين قد جفت. الدمعـــة

الأولى حارة تترقرق تحت الجفنين في هدوء، تمضي لحظة قبل نزولها. الدمعة الثانية: تسيل على الخدين حارة ولكنها لا تنحدر بسرعة من أعلى الوجه إلى أسفله. تتلكأ في بعض الأخاديد التي حفرها الزمن مبكراً في دروب الوجه.. تتجول ببطء الدمعة الثالثة. ومن بعدها يبدأ سيل الدموع.

لا أذكر أين ولا متى قرأت، أن الدموع هي علاج العيون – ربما ـــ الوحيد، لا يهمني هذا الآن، ما يعنيني أنني بدأت أشعر بالراحة منذ نزول الدمعة الأولى؛ اهتز جسمي بعنف وتحولت قطرات الدموع إلى مطر. حاولت محبوبتي أن تجعلني أهدأ ولكن دموعي زادت. كانت الدموع دافئة، تسح وتسح وتسح، وعندما التقطت شفتي دمعة دافئة وتذوقتها اكتشفت أنها مالحة الطعم.

فبكيت من جديد.

-٥-

قالت محبوبتي، وهي تربت على كتفي:

- انتظرتك طويلاً.

هل رأى أحد منكم الريح من قبل؟ وهل أمسك بالهواء؟ وهل مشى فوق سطح الماء؟، من الصعب وصف شعوري الآن. ألقى محبوبتي بعد زمن طويل أدمنت فيه لقاء الغرباء.

نظرت إلى الأرض لأنني لم أجد ما أقوله. كل كلمات العالم، في لغاته المختلفة، لا تصلح الآن من أجل الاعتذار، تذكرت – في وقفتي – أن محبوبتي كانت تقول لي في الزمن الأخضر الجميل الذي مضى، والذي يوشك أن يعود مرة أخرى الآن، وهاهي البشائر، إن من يحب لا يقول لمعشوقته آسف أبدًا.

ولذلك قررت الصمت.

ولكن محبوبتي، قالت لي من جديد، وهي تحاول محاصرتي بنظراتها، التي كان فيها حضور وتفوق وتألق من نوع خاص:

- انتظرتك طويلاً.

فكدت أن أسألها، ولم اكتفيتِ بالانتظار فقط، بيد أن الوقت لم يكن مناسباً لفتح الدفاتر القديمة؛ قررت تغيير الموضوع كله. ولكن ما لم أكتشفه بفراستي القديمة، والتي لم تعد تعمل بنفس قوتها بسبب رهبة الموقف، هو أن حديث محبوبتي عن الانتظار الذي طال، كان مقدمة لحديث آخر.

أخيراً، أخيراً، أقف بين يدي النور الذي جئت أجري لكي ألمسه، هاهي اللحظة تركض نحوي، الجزيرة تفتح ذراعيها لكي يحضنها النهر، يأتيها وتأتيه. والجزيرة منطقة تغسلها الشمس، جزيرة تولد كل صباح. سافرت وحدي إلى هنا، سافرت إلى السفر، إلى المكان المسافر دائماً، وكان قلبي طوال رحلة العودة خفيفاً مثل الهواء، حتى وصلت إلى الهدوء والألوان والوضوح وحب الزمان القديم، الذي يعود ليصبح حبّ حاضري ومستقبلي معاً.

عطشي حارق وكوب الماء بين يدي، تائه ودليلي أمام عينيّ. أراه ولا أراه، أعرفه ولا أعرفه. ألمسه بيدي ويبدو أبعد ما في العالم عني. كاد لحمي أن يشوى على بخار الشك، واليقين أقرب إليّ من حبل الوريد، أتيت وما أتيت.

جئت ومازلت بعيداً، حضرت وما حضرت، لامست نظراتي وجه المحبوب وإن كنت لم أره.

ومع ذلك، هاهي محبوبتي. قلت لنفسي، لقد وصلت أنا على قيد الحياة، إلى واحدة من نهايات عمري. من النادر أن يشهد أحد في زماننا هذا لحظة تحقيق أحد أحلامه، قلت هذا بدرجة من الحبور وأنا لا أعرف أنني أقف على بداية حلقة مفرغة.

تزوجت محبوبتي في غيابي، حدث ما كنت أخشاه، ما لم أصدقه من قبل، ما لم أكن مستعداً لسماعه، إرتبطت بشخص آخر. البكر لم تعد بكراً، والقلب داست فيه أقدام الغرباء، ومحبوبتي أصبحت من نساء الآخرين، شمّت عرق رجل سواي، وسمعت صوت تنفسه، وأُغلِقَ عليها معه باب وحيد وأربعة جدران وسقف ونافذة وحيدة كانت مغلقة أيضاً.

قالوا لي ولم أصدق، قلت مؤامرة، ولكنها تزوجت. يلتف حول إحدى أصابعها خاتم زواج، محفور عليه اسم رجل آخر، لم أعرفه ولم أره. يلتف مثل الأفعى التي تدور حول الضحية تشكل حلقة قبل أن تلدغها.

أنا ومحبوبتي والنيل، ولكن ما أبعد ما أراه الآن وأواجه عما عشته بخيالي من قبل. النيل بعيد، نيل من هنا، ونيل من هناك، ولكنهما ـ معاً ـ بعيدان عنا. الذي لم أتوقعه ولم أعمل له حساباً أنه يقف في المسافة التي بيني وبين محبوبتي رجل آخر. أراه وأسمع صوت تنفسه وأشم رائحة عرقه. كان غيابه الحاضر قوياً يحاصر كل حواسي.

الحلم المستحيل، المستحيل الحلم، الشاطر حسن وابنة السلطان، السفر إلى آخر الدنيا، البنورة المسحورة، مصارعة الوحوش والعودة بما يريده أهل المحبوبة. كان زمناً وكانت الأحلام تتحقق، ولكن أحلامي...

عدت إلى محبوبتي، في صدرِي قلب في بياض شمع العسل الأبيض، قلب مثل الحليب لحظة نزوله من الضرع، أحلى حتى من الشهد. تزوجت محبوبتي، ووضعني زواجها أمام لحظة فاصلة من عمري كله. إما أن أواصل رحلتي وأستمر معها، أو أن أتوقف عند هذا الحد وأعود من حيث أتيت، أتركها في حالها وأرجع.

لن أكون صادقاً مع نفسي إن قلت إنني فكرت في الأمر طويلاً، وقلبته على وجوهه كلها. عائد ولا أملك سوى

الاستمرار في طريقي، ربما كان من الصعب عليَّ وصف همومي، ولكني كنت مدفوعاً بقوة لا أستطيع مقاومتها ولا الوقوف أمامها للاستمرار في الأمر حتى نهايته.

ليس هذا وقت الحساب، محاسبة محبوبتي أو محاسبة نفسي، لا تعنيني حكايات الربح والخسارة، قررت أن أغير الموضوع وتحدثت، كان الصدق الخارج من فمي، يبدو كما لو كان للمكان صوت شخص آخر سواي.

سألتها:

- ومعك أولاد؟!

قالت لي محبوبتي بصوت الزمان القديم:

- من أسعده زمانه.

أعطاه الولد والبنت.

لم أفهم، إن كانت محبوبتي قد أنجبت طفلة وولداً أم أن ذلك إحدى أمنياتها. نظرت إليها مستفهماً فقالت لي:

- الولد سميته على اسمك.

شعرت – رغم كل الآلام – أن قلبي نائم فوق طبقة من الزبد، وأنني أعيش لحظة لم أكن أتوقع أن أعيشها في عمري كله.

سألتها عن اسم البنت.

فقالت:

- سميتها على اسمي.

سألتها وأنا أتذوق ألماً لا حدود له مع نطق الكلمات.

- وحضرة الباش مهندس؟!

ردت بطريق غير مباشر:

- باق على عودته من العمل ثلاث ساعات.

نظرت من النافذة، شاهدت جزءاً من الجزيرة والنيل الشرقي، ثم الضفة الشرقية للنهر، حيث بر الناس، كنت أرغب في الهروب من الموقف الصعب والخروج من هذا المكان، ومع هذا ما كنت أرغب في ترك محبوبتي أبداً. لتكن زوجة ولتكن أماً، ولكني ما صدقت أني وجدتها أخيراً وأصبحت حقيقة أمام عيني.

قلت لنفسي، وقلت لها: إنني أتمنى لو أننا ركبنا قارباً لكي نتفسح به في النيل بعض الوقت، وافقتني محبوبتي فوراً. وكانت قد قالت لي في زماننا الأخضر إن من يرفض طلب المحبوب لا يكون عاشقاً.

نزلنا من الفيللا، قالت لي ونحن نسير، يوجد هنا قاربان، واحد مربوط على الشاطئ ودوره الوحيد هو العبور من ناحية إلى أخرى، طريقه مرسوم، لا يمكن الخروج عنه، قلت لها إنني عبرت من الناحية الأخرى به، وقلت أيضاً إنه يصلح للتجول عبر النهر. فقالت لي إن هناك قارباً آخر يمكن استخدامه في هذه النزهة لأنه بدون خط سير وإنه لم يستخدم في مثل هذه الفسحة منذ أن جاءت إلى هنا، وإن القارب ينتظر مثل هذه الفسحة منذ سنوات.

سألتها ونحن نسير عن ابنها وابنتها. قالت لي، إن الابن – الذي يحمل اسمي وبعض ملامحي – في المدرسة الابتدائية. سألتها في أي السنوات؟ فقالت إنه في السنة الأولى، حاولت حساب عمره في سري، لابد وأنه بين الخامسة والنصف والسادسة والنصف، يبدو أنها تزوجت منذ سنوات. أما الابنة التي تحمل اسمها وكل ملامحها فهي في الحضانة الآن. قسمة عادلة. الابنة لها والابن لي، شعرت ببعض الراحة المؤقتة. والابنان يعودان – الابن من المدرسة والابنة من الحضانة – مع والدهما عند عودته من العمل.

سألتها:

- وأنتِ وحدك في الجزيرة؟!

قالت وهي تشير إلى المساحات الواسعة:

- لا يوجد سوانا في كل هذه الأرض.

حدثت الخلوة بيني وبين محبوبتي، في جزيرة من العشب الأخضر والسماء الزرقاء مسدلة علينا كملاءة من الحرير.

القارب الثاني لم يكن أسير جنزير حديدي مثبت في الشاطئ، كان له مجدافان يمكناننا أن نتحرك به في كل الاتجاهات. اتجهنا إلى القارب الحر الذي كان مربوطاً بحبل في وتد في الشاطئ الآخر. الشاطئ الذي ينام في مواجهة الناحية الغربية، حيث الضفة الغربية للنهر. نظرت - في وقفتي - إلى الضفة الغربية، حقول كثيرة، وخضرة لا نهائية تلتقي عند الأفق البعيد بالزرقة العميقة وبعض البيوت المتناثرة. والصمت في هذه الناحية غويط عميق.

وإن كان القارب الأول مستعملاً، فإن هذا القارب لم توضع فيه قدم إنسان من قبل. كنت - أنا ومحبوبتي - أول من نستخدمه، كان جديداً، نزل في الماء من الناحية الغربية، وأتى إلى هنا، ثم رُبطَ إلى الشاطئ ولم يتحرك من يومها.

كان القارب بدون مجدافين، واتجهت محبوبتي إلى مكان تحت شجرة عجوز وأحضرت المجدافين. نفضت عنهما العنكبوت والتراب وأعطتهما لي، لكي أركبهما في القارب، ركبتهما مكانهما، وسحبت القارب الذي كان ملتصقاً بالشاطئ إلى الماء. مددت يدي لمحبوبتي لكي تركب معي. ولكنها تراجعت في اللحظة التي كانت تهم فيها لتضع قدمها في القارب.

شوهت ملامح وجهي دهشة طارئة. فقالت لي إنها نسيت دفة القارب وستحضرها لكي تركبها له، من يمكنه الإبحار بقارب بدون دفة؟!

كان الوقت يجري سريعاً، وكنت في انتظارها، وخلال وقت الانتظار الطويل، خيل إليّ – للحظة عابرة – أن محبوبتي لم تتزوج، وأنها قالت لي حكاية الزواج كلها من باب الرغبة في معرفة ردود فعلي.

عادت محبوبتي ومعها الدفة، وتعاونا معاً في تركيبها، وجلست هي في مؤخرة القارب وأمسكت بالدفة، وجلست أنا في النصف الأمامي ممسكاً بالمجدافين، كنت في مواجهتها وكانت هي في مواجهتي.

نظرت إليَّ مستفهمة عن السبب في توقفي. كل ثانية تمر علينا الآن، يسرقها الآخرون منا، تقربنا من لحظة عودةَ زوجها. أمسكت بالمجدافين، اكتشفت أنه من الصعب تحريكهما قبل ابتعاد القارب عن الشاطئ، وهنا تذكرت محبوبتي أنها نسيت العصا، التي تدفع بها القارب بعيداً عن الشاطئ. تركت الدفة ونزلت، اتجهت إلى مكان قريب، أحضرت منه عصا القارب وأعطتها لي، كانت معطنة وحولها طين من الأرض، وكانت بعض النباتات الصغيرة قد نبتت في الطين المحيط بها. أخذت منها العصا وهي تشرح لي كيفية استعمالها.

قالت لي إن الأمر بسيط، أضع طرف العصا في كتف والطرف الآخر في أقرب مكان من الشاطئ للقارب، ثم أدفع العصا فيتحرك القارب وأسير أنا ببطء مع حركة القارب من مقدمته حتى مؤخرته، ويكون القارب قد أصبح في الماء، ويمكنني استخدام المجدافين ووضع العصا في أرضية القارب.

كنت أسمع وشوشات النهر مع كلمات محبوبتي وكنت أتخيل لون الغروب في هذا المكان، عندما تستعد الجزيرة لأن تغفو وتنام فوق صدر النهر.

كنت أستمع إليهما معاً، وشوشات النهر وصوت محبوبتي، وأنا أنظر إلى الحياة، وبدلاً من البدء في تنفيذ ما قالته لي، ملت على النهر، اقتربت من مياهه بوجهي، حتى مال القارب وكاد أن ينقلب بنا، قلت له همساً: إنني ومحبوبتي معاً فوق مياهه، وإنني لن أذكِّره بوعده لي، فهو حر، والمثل يقول إن "وعد الحر دين عليه". من الآن وحتى الثالثة لابد وأن تحدث المعجزة ويفيض.

استعجبت محبوبتي من حالي، قالت إنها لم تتصور أن يصل اشتياقي إلى البلاد لدرجة مناجاة النيل بهذه الصورة. لم أرد عليها، لأنني لم أشأ أن أحكي لها عن وعد النيل. من الأفضل لنا معاً، أن تأتي المعجزة وأن يتم الفيضان بصورة مفاجئة لها. وبعد حدوث المعجزة نتكلم معاً.

فكرت أن ألمح لها بعض التلميحات، مجرد إخفاء بعض الأمور عنها جريمة، بحثت عن بعض الكلمات الغامضة لكي أقولها. ولكني خفت، إن تكلمت ربما أسكرتني

الكلمات، ولا أعرف أين يجب أن أتوقف. ولهذا قد أفسد المفاجأة بكل ما تحمله لنا معاً، فضلت الاحتماء بالصمت، خوفاً من مغامرة الكلام الذي لن أعرف كيف أوقف خيوله عن الصهيل والجري في الوقت المناسب. لقد فهمت أنني أناجى النيل وهذا أفضل لنا معاً.

حركت القارب كما قالت محبوبتي، وعندما كنت أنفِّذ ما قالته لي، أكدت أن هذه التعليمات عرفتها من المهندس، وإن كانت لم تقترب من القارب، من يوم حضوره، وهو من ناحيته ليس لديه وقت لذلك. قلت لنفسي، لابد وأنها كانت تنتظرني حتى نقوم بهذه الرحلة معاً. لم تقل لي هي ذلك، وأنا لن أقوله.

قالت لي، إنه لولا مجيئي اليوم لظل القارب هكذا في مكانه حتى يكبر الأبناء ويستخدموه هم. القارب يسير، اشتركنا معاً في توجيهه، بيدي المجدافان وبين يدي محبوبتي الدفة، ونحن نوازن القارب معاً. لف القارب بنا حول الجزيرة، ذهبنا وعدنا. عبرنا من النهر الذي غرب الجزيرة إلى النهر الذي شرقها، وعدنا مرة أخرى. لكننا تجنبنا –

دونما كلمات – الاتجاه إلى البر الذي يزدحم بالناس. حركت المجدافين بقوة لم أعرف مصدرها لديِ من قبل.

كان الهواء المبلل بالماء يداعب وجهينا، نظرت إلى القارب، لم أجد له قلعاً. سألت محبوبتي فضحكت قبل أن تجيب، كادت أن تستلقي على ظهرها من كثرة الضحك. أسنانها بيضاء مازالت، ووجهها من نفس جمال الزمان الأخضر الجميل. قالت إن بعدي عن البلاد أثر علي. القارب ليس سفينة ولا حتى فلوكة، والسفينة فقط هي التي يكون لها قلع. أما القارب فيكفيه عادة المجدافان لكي يتحرك.

تمنيت لو أنني كنت ألبس جلباباً بلدياً، إذن لوقفت حتى يمتلئ بالريح، ولحركت القارب به. كانت محبوبتي تلبس جلباباً واسعاً. وقبل أن أتكلم، كانت الفكرة تعبر عن نفسها عبر ذهنها. قالت إنها عندما يهب هواء الربيع ستقف، وما إن يمتلئ فستانها بالهواء حتى أستريح من التجديف ويتحرك القارب بمفرده، وأنتقل أنا من مكاني إلى الدفة لكي أمسك بها.

فكرت في ترك المجدافين والاقتراب من محبوبتي لكي نبدأ الكلام، أقول وتستمع لي، وتقول واستمع لها.

وتتعانق الكلمات وربما يعود طيف الزمن الجميل فأبكي على صدر الحبيب كل هموم العالم.

اكتشفت أن الصمت أكثر رحابة من الكلمات التي أصبحت مثل الفخاخ المنصوبة للمحبين والعشاق. إننا متفاهمان حول كل الأمور، هكذا، ودون أن ينطق أيٍ منا بكلمة واحدة. تحرك القارب ومحبوبتي وجهت الدفة إلى كل الاتجاهات، اقتربنا من شاطئها وتوقفنا في الخلجان ودخل القارب تحت الأشجار.

نظرت إلى محبوبتي، خيل إلي في بعض الأحيان، أن شفتيها تتحركان وأنها تتكلم، ولكن الصمت كان يحيط أذني بطبقة ثقيلة. سألت نفسي: وهل في الجنة ما هو أكثر من هذا؟ الماء، الماء الصافي، الماء العذب، والحضرة والأشجار والنباتات، والزرع الذي لم يزرعه ولم يروه أحد، والبيت الخالي، لا أحد من الناس هنا. لا أحد من الغرباء، لا أحد من الآخرين.

أنا ومحبوبتي والنيل، لم أشعر برغبة في تناول أي طعام، لم يقرصني الجوع كالعادة، رغم أنني لم أتناول أي طعام منذ الصباح، وحتى الإفطار كان سريعاً. لم أشعر

بالعطش، يبدو أنني تخلصت من هذه الرغبات الأرضية وحلقت في عوالم غريبة. حلقت بعيدا، صعدت فوق حبل مجدول من حبات قلبينا، قلب محبوبتي وقلبي.

في لحظة الصفاء هذه قررت، عندما نتكلم، ألا أقترب من الماضي، لن أحاسبها الآن على زواجها من شخص غريب، وتمنيت من كل قلبي ألا تحاسبني هي على هروبي منها وسفري بعيدا عنها بمفردي. مع أنني أمضيت السنوات التي مضت في انتظار سماع هذا السؤال منها. ورتبت كل كلمات الرد في ذهني.

وقبل العودة من بلاد الغربة، كنت أجلس معها في الخيال وأستمع إلى سؤالها، ثم أبدأ في الرد عليها، أفتح جهاز تسجيل وأتكلم، أحكي وأشرح وأبرر، أقدم كل دفاعاتي عن تصرفي الغريب، وسفريِ المفاجئ وعدم إخبارها والاتفاق معها.

بدا لي أنه من الصعب، أن نضيع اللحظات الجميلة في اللقاء الأول، بعد سنوات البعاد في الكلام عما حدث، خُيِّل إلي أن الماضي سيحاول أن يسرقنا من الحاضر، وأن يأخذنا

من لحظة صافية لكي يتجول بنا في زمن صعب وعصيب أتمنى أن يكون قد مضى.

سألت نفسي: وماذا بعد؟ ليذهب الماضي، ليسكن في خانات الذكريات القديمة. ولكن ماذا سنفعل بعد الآن؟ اكتشفت أن السؤال سيقودني إلى منطقة تبدد أي إحساس أشعر به.

هربت من السؤال، ولعنت عقلي وتمنيت لو أنني نجحت في الهروب منه. كل ما أتمناه أن أحيا هذه اللحظة، فقط. نظرت حولي. شاهدت على البعد، في النهر، قلعا أبيض يتحرك ببطء. نظرت إليه، وقلت هاهم الآخرون يقتحمون علينا خلوتنا. استأنفت التجديف، وتمنيت لو أن محبوبتي تركت الدفة واقتربت مني، تجلس بجواري، تلامسني وألامسها، وأتأكد من وجودها معي. ولكني اكتشفت أن جلوسها أمامي أفضل، أشربها بعيني، أتعامل معها بكل حواسي، أعوض أيام الحرمان وليالي البعاد.

شهقت، الدموع تداعب جفني، والقلب ارتفع من مكانه، أحسست به يتحرك من مكانه من شدة الحزن. فكرت

أن أقول لها ذلك، ولكن خيل إليّ أنها تعيش نفس الإحساس، وربما أكثر مني، فالنساء أكثر عاطفة من الرجال.

كانت تنظر إليّ، حاولت قراءة نظراتها، عتاب؟ ألم؟ لوم؟ لم أعرف ماذا تقول عيناها لي. كدت أن أسألها، وإن كانت عيناها قد بدتا في عمق البحار البعيدة. هربت من النظر إلى عينيها لأن حالة من الشجن جاءت إلي.

فكرت في الوقت، تذكرت ساعتي، ولكني خشيت من النظر فيها، خفت أن يخرجني ذلك من اللحظة التي أحياها. وكانت محبوبتي تنظر حولها بأكبر قدر من الدهشة كأنها ترى هذا العالم للمرة الأولى في حياتها.

عجبت من حالها، فهي تعيش هنا منذ سنوات. جاءت إلى ذهني حكاية الهدية والاعتذار عن عدم وجودها معي، وأن أحكي لها ما جرى في بيتنا، ثم أسألها عن أهلها وبيتهم المقابل لبيتنا، وقصة زواجها وكيف تمت، ولكني أجلت هذا كله لأنني خيل إلي أننا سنبقى هكذا إلى الأبد، لن نفترق أبدا.

كنت قد أعددت نفسي لكي أحدثها عن الغربة والاغتراب، عن المدن البعيدة والشوارع المغسولة بالمطر الموشاة بالصمت، والبيوت المغطاة بحبات الثلج، وعن

الشوارع التي بدون زحام والسيارات التي بدون كلاكسات، وعن بنات بلاد الغربة وجلودهن الصفراء الباهتة والتي تطل من تحتها عروق زرقاء.

أحكي عن الحنين واللهفة والشوق ونار البعاد التي تكوي القلوب كل مساء. وأحكي عن نزول الليل من الغربة، تلك القطرات الرمادية التي تذكرني لحظات نزولها بالمحبوب.

أسألها عن شرفة بيتها، ذلك المكان الذي سمع كلمات الحب الأول، وشاهد مناجاتنا البكر، ولكنها كانت معي ولم تكن معي، وأنا من ناحيتي لم أعرف كيف مر الوقت. توقفت، كنت في الناحية الأخرى، في النيل الآخر، النيل الغربي، وأمامي الضفة الغربية للنهر وكنت أرى الجزيرة من ظهرها.

شاهدت مبنى كبيراً، في الضفة الغربية للنهر، كنت أراه لأول مرة، وقبل أن أسألها عن المبنى احتبس السؤال في حلقي. توقف ولم يتحول إلى صوت أسمعه وأنا أنطق به. شاهدت الأسلاك الشائكة والبنادق المعلقة في أكتاف الجنود

وأبراج المراقبة أدركت أنه سجن، وبجواره مبنى آخر، مثله تماماً. سجن آخر. سألت نفسي: ما الفارق بين سجن وسجن؟

تذكرت أنني أسمع عن سجن للرجال وآخر للنساء وبالقرب منهما حديقة للزهور يقولون إنها تمد البلاد كلها بالزهور، والمنطقة جميعها مرشوشة بالعشاق يتناجون ويهمسون، ومنظر العشق – الذي عشته بخيالي – دفع إلى ذهني بسؤال عن زوجها، وموعد عودته ومعه الأطفال، وموقفي، ولكنها – وقبل أن أنطق بالسؤال – أشارت إلي للمرة الأولى منذ أن ركبنا القارب. طلبت مني الانتظار قليلاً.

أشارت لي وللنهر، نظرت إلى النهر، خيل إلي أن المعجزة حدثت وأن الفيضان جاء، لكي يستحم النهر ويغسل البر كله، ولكن النهر كان كما هو، لم يحدث له أي تغيير، استفهمت منها، فمدت يدها، قربتها من فمي ومدتها بعد ذلك باتجاه النهر، فهمت أنها تريد أن تشرب، فزعت لأن العطش تسلل إليها، حاولت أن تقول لي إنها عطشى، ولكن الكلمات لم تخرج من فمها. أدركت أننا أخطأنا لأننا لم نحضر معنا مياها للشرب.

توقفت عن التجديف حتى تنتهي محبوبتي من الشرب، فهي تركت دفة القارب، مالت محبوبتي على جانب من القارب، وكانت حركة القارب قد أصبحت جميلة، خاصة وأنه متروك بدون مجاديف وبدون دفة، مدت يديها، تحاول رفع مياه النهر بهما إلى فمها.

في المرة الأولى، تسربت المياه من بين أصابع يديها في المسافة من النهر حتى وجهها، اقتربت أكثر من حافة القارب، وحاولت أن تشرب بفمها مباشرة من المياه، فكرت أن الجزء المائل من الإنسان في الحالة التي هي عليها الآن يكون أثقل جزء فيه، وقد يخل هذا الوضع من توازنها، وأن القارب قد ينقلب بنا، فكرت أن أنبه محبوبتي إلى ذاك. ولكني قلت لنفسي إن محبوبتي تعيش هنا منذ سنوات وهي تدرك هذه الأمور بصورة أفضل مني.

في اللحظة التي كنت أفكر فيها، اختل توازن محبوبتي فسقطت. نزلت برأسها مباشرة إلى النهر، لم تصعد مرة أخرى، ولم تقاوم. فكرت في النزول وراءها، ولكني تذكرت أنني لا أعرف العوم، ومحبوبتي تعيش وسط الماء منذ سنوات، ومن المؤكد أنها سباحة ماهرة، وستخرج من

الماء مغسولة مثلما تخرج الجنيات وبنات الحور، لكي تخاوي البني أدمين من سكان الأرض.

أشرق في ذهني معنى ابتهجت له، ستبقى محبوبتي في الماء حتى يأتي الفيضان، وتخرج من قلب الماء البني الغامق ويحدث اللقاء، وأنا ومحبوبتي فوق ظهر النيل، في انتظار اللقاء وقفت في منتصف القارب.

كانت محبوبتي في قلب النهر، ربما كانت تبحث عن صَدَفَةٍ نادرة، نكتب عليها الأجزاء الباقية من قصة حبنا، ولكني ومع مرور الوقت، شعرت بالخوف على محبوبتي، صحت طالبا النجدة، وإن كنت لا أعرف ممن أطلب النجدة، لم يرد عليَّ أحد، رن الصوت العالي في أركان الكون الأربعة، نظرت حولي، كان بر الجزيرة هو الأقرب إلي من بر السجن والزهور والعشاق، أما بر السوق والناس والزحام والبيوت فهو في الناحية الأخرى، تفصلني عنه الجزيرة والنهر الآخر.

الضفة الغربية لنهر النيل في مواجهتي، وفوق الضفة الغربية كان الناس يتحركون ويتكلمون، وكان بعض العشاق في حالة عناق، وعسكري السجن يتعارك مع زوار

المساجين، والباحثون عن الزهور النادرة يشترون الزهريات من بائع الزهور.

شاهدت كل هذا دون أن يصلني الصوت. بدا لي الأمر كله كما لو كان جزءا من فيلم في زمن السينما الصامتة. راودتني فكرة طارئة، إن كانت محبوبتي قد غرقت، فلأغرقْ معها، ولكن الفكرة – مثل كل ما يحدث في حياتنا – جاءت متأخرة، بعد فوات الأوان، لو نزلت الماء الآن لن أكون معها، وقد أغرق أنا فعلاً وتخرج هي من الماء.

الغريب أنها غطست ولم تقب بعد ذلك، لم يطف وجهها فوق سطح الماء، مع أن من يغرق يطفو أكثر من مرة، حلاوة الروح أو التشبث بالعالم، إنه يقاوم ونحن لسنا في منتصف النهر، إننا نقف في منطقة مليئة بالشجر، كنا أقرب إلى شاطئها، وكلما اقتربنا من الشاطئ كان النهر غير عميق.

كل المطلوب هو الانتظار، قليلا أو كثيرا من الوقت، وتظهر محبوبتي مقدمة لي واحدة من مفاجآتها السعيدة، وقد يفيض النيل لحظة ظهورها، ربما تتفاوض معه – في

الأعماق – على فكرة الفيضان، يتكلمان ويتناجيان ويقول هو شروطه وترد هي على الشروط.

من يدريني، ربما يسألها النيل الآن، إن كانت قد تبولت أو تبرزت أو بصقت فيه من قبل، وأنا متأكد أن محبوبتي لم تفعل هذا مع محبوبي النيل.

نظرت في الماء جيدا، لم يكن لها أي أثر. دققت في التموجات وحركة الماء ولكن يبدو أن الأرض التي تحت الماء في قاع محبوبي النيل قد انشقت وبلعتها وأنها تنزل الآن إلى سابع أرض.

خيل إليَّ أنني أسمع بكاءها، وأنه يبدو مختلطا بصوت الماء الذي يأتي إلى الشاطئ، والقارب وفروع الأشجار فيحدث صوتا هامسا من الصعب أن تمسك الأذن به.

الوقت الذي مر عليّ جعلني أتأكد من فقد محبوبتي، محبوبي هو الذي أخذ مني محبوبتي، وعدني بالمعجزة ولكنه بدلا من أن يفي بالوعد أخذ مني المحبوبة.

بكيت، صحت، ناديت بصوت عال، شعرت أنني أقتلع الصوت من حبة القلب، كدت أن أشق ملابسي، اقتربت

بالقارب من الشاطئ، كانت تجلس هنا، نظرت إلى المكان الذي كانت تجلس فيه، وكانت تمسك هذه الدفة، نظرت إلى الدفة، ذهلت، لم تكن هناك دفة أبدا، يبدو أن الدفة – التي كانت هنا – قد نزلت وراءها إلى الماء، كنت متأكدا أنه كانت هناك دفة، وكانت محبوبتي هي التي تحركها، ولكني لم أجد لا الدفة ولا المكان الذي تركب فيه.

حركت القارب من جديد حتى الشاطئ، نظرت في النهر، حاولت البحث عن علامات أحدد بها المكان الذي غرقت فيه محبوبتي، كان في الشاطئ المقابل شادوف للري وحوله شجر صفصاف وبالقرب منه تنزل المياه على شكل سلم من الحجارة البيضاء النظيفة اللامعة، يغسلها الماء كلما جاءت بعض الموجات.

نزلت من القارب إلى الأرض، شعرت بثبات اليابسة بعد هذه الساعات فوق قارب يتأرجح بصورة مستمرة، وقفت على الأرض، كان الصمت مؤكداً في كل مكان، وبدأت أسمع صفيرا في أذني من كثرة حصار الصمت لي، وكانت الظلال قد بدأت تستطيل باتجاه الشرق.

لم أعرف كيف أتصرف.

كنت تائهاً، ولكني كنت متأكدا وسط حالة التوهان هذه من أمر واحد، وهو أن محبوبي النيل قد خدعني، وعدته ووفيت بوعدي، عدت جريا وهو لم يف بوعده لي، أخذ مني محبوبتي.

يبدو أن ما يحكونه عن عروس النيل حقيقة، وأن احتياجه لعروس كل عام أمر مؤكد، الفارق أنهم كانوا يحضرون له العروس، من قبل، في احتفال ضخم، ولكن الذي يحدث الآن، أنه هو الذي يبحث عن العروس، ويختارها ويأخذها لنفسه عن طريق اسم جديد هو الغرق.

هذا ما يحدث كل عام، ولأن الاسم غرق، فنحن لا ندري به، وكان لدي وهم غريب، أن النيل سيفيض في أي لحظة.

جلست من جديد أنتظر.

والأمل يداعب اليأس الذي انتشر في نفسي، النيل هو النيل، لم يحدث له أي تغيير، والماء هو الماء، والركود هو الركود.

كان النيل في حاجة إلى الاستحمام، بدت مياهه غير نظيفة مثقلة بالفضلات، والأرض من حوله شراقي في انتظار فيضان لم يحدث، وعدني به ولم يف بالوعد.

همست لنفسي:

- لقد غدر بي محبوبي النيل.

لقد غدرت بي يا بحر النيل.

-٦-

اقتربت من أول إنسان صادفته وسألته:

- يا عمِّ.

أين الطريق إلى قسم الشرطة؟

استفهم الرجل مني أكثر من مرة، ولم يدرك الأمر الذي أسأل عنه، إلا عندما نطقت كلمة: بوليس.

كنت قد فكرت في حالي، وفيما فعلته بمحبوبتي، تنبهت إلى ضرورة التصرف، يبدو أن محبوبي النيل قد أخذ محبوبتي بين أحضانه وتركاني هنا.

الآن، تقترب عودة مهندس الري، ومعه ابنه الذي اسمه على اسمي، وابنته التي اسمها على اسم أمها، وبقائي هنا لا مبرر له.

تحركت، نزلت إلى الجزيرة بعد أن ربطت القارب في مكانه، وتوجهت إلى القارب الآخر، تركت القارب الحر الطليق، الذي أسلم محبوبتي إلى محبوبي النيل، عبرت الجزيرة من الناحية الغربية، إلى الناحية الشرقية، واتجهت

إلى القارب المربوط بجنزير من الحديد، وكل دوره هو العبور من جزيرة محبوبتي إلى بر الناس والزحام والضجيج.

كان قرار إبلاغ الشرطة بالأمر قد استدار وتبلور بداخلي، واقترب من شكله النهائي، وكان الصمت مؤكدا في كل مكان حولي، وقد عبرت المسافة بين الفيلتين، الفيلا التي كانت تسكنها محبوبتي مازالت مواربة الباب مثلما تركناها والنوافذ مفتوحة كما هي، والفيلا الأخرى كما هي مغطاة بالعنكبوت والتراب، مهجورة منذ أيام الخليقة الأولى.

ركبت القارب في رحلة العودة، ففككت رباطه وأمسكت بالجنزير الحديد. وحركته في اتجاه بر الناس، كنت في سباق مع الزمن، وكانت لدي رغبة في الوصول قبل عودة مهندس الري والولد والبنت.

وكنت أحاول أن أتخيل رد الفعل عليهم عندما يعرفون أن الزوجة والأم قد اختفت. وهنا أدركت أهمية التبليغ عن الأمر. عندما أذهب إلى الشرطة مبلغا يختلف الأمر عن الذهاب إلى الشرطة متهماً.

كان يمكنني الهروب من هنا، ولكن فكرة الهروب لم ترق لي. وكنت أرغب في البقاء ومواجهة الأمر وليكن ما يكون، فأنا الفاعل الأصلي. أنا الجاني ومحبوبتي هي المجني عليها.

كانت تجلس في بيتها، في انتظار زوجها، وابنها الذي يحمل اسمي، وابنتها التي تحمل اسمها، لكي يعودوا إلى البيت في نفس وقت العودة كل يوم، ويتناولوا جميعا طعام الغذاء ثم يكملون يومهم.

أنا الذي دفعتها إلى النزول معي، وأنا الذي لم أبذل أي محاولة لإنقاذها، لم أمد لها يدي؛ ولم أنزل الماء وراءها، ولم أصرخ طالبا النجدة من الناس، لم أستغث، جلست أحلم في انتظار حدوث معجزة، أوهمت نفسي أنها تعرف العوم، وأنها سباحة ماهرة، وهربت حتى من فكرة ملازمتها ومرافقتها في هذه الرحلة الأخيرة.

ما أكثر ما هربت منها وتخليت عنها وتركتها بمفردها. في شبابنا الأول، في أيام التلاقي كل يوم، والدموع، والكف النائمة في أحضان الكف الآخر، هربت

منها فجأة. قلت لنفسي، إن مخرجي الوحيد من أزمتي هو السفر والعودة إليها من الخارج.

لم أعد إلا الآن، عدت لكي أخرجها من بيتها ونذهب معا إلى النهر لكي تغرق، في اللحظة التي حاولت فيها أن ترتويِ. لم يروِ الماء ظمأها. ولكنها كلها أصبحت في قلب قلب الماء، وكنت أتفرج عليها، أدركت أنني لن أعرف طعم الراحة بعد ذلك أبدا. ولابد من التكفير عما فعلته بكل الصور الممكنة.

فكرت في الأمر جيدا، سألت نفسي: هل أنتظر زوجها وأعترف له بكل ما فعلته؟ هل أذهب إلى طفليها، الطفل الذي يحمل اسمي، والطفلة التي تحمل اسمها وأربط مصيري بمصيريهما، حتى أوصلهما إلى بر الأمان الذي عجزت عن الوصول إليه مع أمهما؟! هل أترك للزوج، الذي أصبح أرمل، وللابن والابنة اللذين سيتذوقان طعم اليتم مبلغاً كبيرا من المال وأهرب؟ هل أبقى هنا في الجزيرة حتى تحدث المعجزة، وتخرج محبوبتي من النهر؟ تطلع منه مع الفيضان، تقعد، تأتي عليّ ومعها ماء النهر الذي يفور عندما تتفجر عيون الغمر العظيمة، وتتفتح كوى السماء. طوفان أم فيضان؟ جسد محبوبتي أم سفينة

نوح؟ يطهر النهر نفسه، ثم يغسل الوادي مما شابه ولحق بـــه أم يأتي الطوفان فيغرق كل ما في البر؟ وأبقى أنا ومحبوبتي فـــوق سن الجبل البعيد ويبقى لنا النهر ونصل معا إلـــى أيـــام الكـــون الأولى. وتأتي الليالي القادمة، تلك الليـــالي الصـــامتة المظلمـــة الموشاة بالسحر والحكايات.

سألت نفسي، وأنا أرفرف بعيدا على أجنحة الحلـــم: هل انسحبت محبوبتي من حياة زوجها، لكي تظهر في حياتي أنا، بعد الفيضان أو الطوفان والتطهر والاستحمام؟

بدا لي ذلك نوعا من السخف، وظللت أذهب وأجيء مع الأحلام، حتى انبثق في ذهني مثل عامود مـــن النـــور، تصور أن أذهب إلى قسم الشرطة، وأن أسلم نفسي وأعترف بتهمة إغراق محبوبتي. لن أشوه صورتها في أعين أولادها، ولن أعطي زوجها فرصة للانتقام من ذكراها. سأقول إننـــي أغرقت زوجة مهندس الري بسبب ثأر قديم بين عائلتينا منذ أن كنا نسكن جميعاً في شارع واحد.

ثأر محفور في النفس، سافرت إلـــى بـــلاد الغربـــة وعدت والثأر لا يبارح ذهني، إلى أن أحضرت صباح اليوم، ودفعتها في الماء بيدي هاتين. كرم ضيافتها كان السبب فـــي

نزولها معي إلى النهر، حتى نُمْضِي بعض الوقت في الهواء الطلق، بدلاً من البقاء في البيت بمفردنا. لم أذهب إلى عمل زوجها لأنه لا يعرفني. وفي النهر انفردنا وغدرت بها ودفعتها في النهر خلسة، وسقطت هي فورا، لأنها توقعت مني أيِ فعل إلا دفعها في الماء.

استراحت نفسي للقرار، قمت من فوري، وفكرت في ترك علامات تؤكد اعترافي، عدت إلى القارب الذي كنا نركبه، نزعت منه المجدافين والدفة، لم أدخلهما الفيلا، ولم أرجعهما إلى مكانهما، ولكني وضعتهما تحت شجرة عجوز بالقرب من مرسى القارب، تعمدت أن أترك عليهما بصماتي، فهذه هي أدوات الجريمة، جريمة إغراق زوجة مهندس الري، جارتي القديمة، قبل سفري إلى الخارج، وما إن يجد الضابط الهمام بصماتي على المجدافين والدفة حتى يأخذني فورا.

كنت أقترب من الضفة الشرقية للنهر، حيث بر الناس والزحام واللغط والأصوات العالية والبيع والشراء. تركت القارب في نفس مكانه، ربطته إلى الشاطئ وتعمدت أن أترك فيه بعض الأوراق التي كانت معي، قلت إن هذه

الأوراق ستصبح بعد قليل أداة اتهام ضدي، اكتشفت أن في جيبي منديلاً أخذته من محبوبتي، وضعته مع الأوراق. ليس بعد هذا دليل، أوراقي ومنديلها في قارب زوجها، والقارب لم تكن فيه أية علامات من قبل.

نزلت على البر، نظرت في ساعتي للمرة الأولى منذ أن جئت إلى محبوبتي، الباقي من الزمن ربع ساعة حتى يحضر المهندس ومعه ابنه وابنته، وخمس عشرة دقيقة فقط ويحضرون، يستخدمون القارب في العبور إلى الجزيرة.

في هذا اليوم بالذات، لن يعبروا النهر، ستكون المرة الأولى التي يغيرون فيها إحدى عاداتهم، يشاهدون أوراقي ومنديلها، يتوقف المهندس، يرفض العبور، تساوره الشكوك، وتلعب الفئران في عبه، يشعر بالخوف، بالرهبة، بالقلق. قد يحضر إلى قسم الشرطة فيجدني أدلي باعترافي، وقد يذهب إلى الفيللا لاستطلاع الأمر أولا، وفي هذه الحالة يحتاج إلى عشر دقائق للعبور، ثم عشر دقائق أخرى وأخيرة حتى يكتشف الأمر.

فكرت في الوقوف بالقرب من المرسى، بحيث أشاهدهم ولا يشاهدونني، ولكنني أدركت أنني سأراهم كثيراً

في الأيام القادمة، ثم إنني أدركت قيمة أن أعترف أنا بدلا من أن يقدم الزوج بلاغا إلى القسم.

لم أكن أبحث عن بطولة، ولم أكن أبغي تخفيف الحكم عليَّ، بقدر ما كنت أبحث عن طريقة للرضى عن النفس التي أصبحت مستحيلة في هذه الأيام.

الرضا عن النفس؟! لكي أكون دقيقا أقول إنني كنت أبحث عن حالة من الصلح مع النفس، بعد خصام طويل معها. ولذلك أسرعت في سيري إلى قسم الشرطة.

تهت بين شوارع المدينة الصغيرة، اضطررت لسؤال شابين كانا يسيران معا. اختلفا حول التسمية، هل هو المركز أم القسم؟ واحد أكد أنه مركز والثاني قال إنه قسم، وأحدهما شرح الفارق، المركز عبارةَ عن مدينة يتبعها عدد من القرى الصغيرة حولها. والقسم مدينة فقط، وسلطة رجل الشرطة لا تتعدى كردون المدينة.

قلت لهما إن الفارق بين المركز والمدينة لا يعنيني، كل ما يهمني هو الوصول إلى مبنى المركز أو القسم قبل الساعة الثانية من بعد الظهر، كانت لهجتي جادة، ولذلك

أوقف الشابان نقاشهما حول حكاية المركز أو القسم وقررا أن يرياني الطريق بنفسيهما.

في القسم، أو المركز – هذا لا يهم الآن – توجهت إلى الضابط النوبتجي، وقفت أمامه، كان الضابط مشغولا في حديث تليفوني، كان يتحدث عن إصلاح سيارته الخاصة، كان يهدد ويتوعد من يحدثه، كان يقول إنه لم يتفسح منذ أسبوع بالسيارة وقت العصاري، وأنه كاد أن ينفجر من الملل ومن الضيق.

خفت أن تطول المكالمة، وأن يقترب وقت عودة الزوج، زوج محبوبتي ومعه ابنه وابنته، ويحضر إلى هنا ويقدم بلاغه. وفي هذه الحالة أصبح متهما، ولا يبقى لما أقوله أي أهمية سأصبح مجرد معترف.

أصبت بحالة من التوتر، تنقلت نظراتي بين سماعة التليفون وبين شفتيه وبين ساعتي، كنت أركز على عقرب الدقائق، حاولت تنبيه الضابط إلى خطورة الأمر الذي جئت من أجله، ولكنه أشار إليّ بيده طالبا مني السكوت، حاولت من جديد، فما كان منه إلا هش بيده الأخرى، التي لا يمسك

بها السماعة، والتي كان يمسك بها قلم الرصاص، يرسم به على ورقة أمامه أثناء الكلام.

هش بيده ناحيتي قائلا:

- هش، هش.

واستمر محاولا إقناع من كان يحدثه بضرورة إحضار سيارته مساء اليوم، أو صباح الغد على الأكثر، وإلا سيضطر أن يريه أن عين الحكومة الحمراء، والتي يكاد أن يبدو منها الدم، قادرة على إخافته أكثر مما يتصور.

تحركت من الضيق، ولكن ضيق المكان جعلني أدرك عدم جدوى الحركة، وجدت مقعدا خاليا فجلست عليه، ولكني عدت ووقفت، وكانت حركاتي فيها عصبية واضحة، ابتعدت بأذني عن المكالمة، كان ذلك صعبا. اكتشفت أن المكالمة التليفونية دخلت في تفريعات جديدة، من الذي يتكلم على الخط الآخر. يبدو أنه ميكانيكي يطلب من الضابط استخراج بطاقة شخصية لأحد الذين يعملون عنده.

والضابط قال إن مسألة استخراج البطاقة سهلة جدا، وإن البطاقة ستكون معه لحظة الانتهاء من تصليح السيارة.

- سلم واستلم.

قال الضابط ضاحكا وأردف:

- هذا هو شعار زماننا.

تقدمت من الضابط مرة أخرى، لا أدري للمرة الكم، حاولت إفهامه أنني أقف الآن على حد السكين، وأن الوقت يحاصرني، وبدلا من أن يهشني مثل المرات السابقة، وقد تذكرت أن عملية الهش هذه لا تتم سوى مع الذباب، أشار الضابط هذه المرة، إلى جندي كان يقف بالقرب منه، وأشار للجندي ناحيتي، فاقترب الجندي مني مستفهما، ولكني قلت له، إن موضوعي لا يجب قوله إلا للضابط فهو موضوع خطير.

ابتعد الجندي عني بهدوء، حتى يتمكن الضابط من الاستمرار في مكالمته التليفونية، وأشار إليّ طالبا الانتظار حتى ينتهي الضابط من حديثه.

وبعد وقت انتهت المكالمة فعلا.

تقدمت من الضابط فورا، قبل أن ينشغل في أي موضوع جديد.

قلت له، بطريقة تثير اهتمامه:

- جئت لكي أعترف.

لم تبد عليه أي علامات اهتمام، يبدو أن مثـل هـذه الأمور تحدث هنا كل يوم، وأن مثل هذا الضابط لابـد وأن يفقد اهتمامه بها بعد فترة من الوقت.

قال لي بفتور:

- اعترف.

ولما بانت على ملامح وجهي، مفاجأتي من رد فعله.

سألني:

- هل منعك أحد من الاعتراف؟!

قلت ببطء لدرجة أنني كنت أتذوق طعم الكلمات على طرف لساني، قبل النطق بها:

- لقد أغرقت امرأة في النهر.

نظر إلى الضابط باستغراب ممزوج بالتساؤل:

- أنت؟!

جاء ردي هادئا:

- نعم.

سألني ساخرا وابتسامة غريبة تملأ وجهه:

- أي امرأة وأي نهر؟!

قلت إن النهر هو النيل، وإن كنت لست متأكـدا إن كان النيل الشرقي الذي تطل عليه الضفة الشرقية، أم النيـل الغربي الذي تطل عليه الضفة الغربية، تلعثمت وقلـت إنـه النهر الذي في مواجهة السجن، النهر الشرقي.

سألني بنفس السخرية.

– والمرأة؟!

وقبل أن أجيب، كان ينظر في يدي، وعندما اكتشف أن يدي خاليتان من دبلة الزواج أو الخطوبة، أردف سـؤاله بسؤال ثان:

– عشيقتك التي خانتك؟

خبطت المنضدة المتسخة، والتي كانت أمامـه بكـل قوتي:

– لن أسمح بذلك.

صحت فيه، وكان الرذاذ يتسابق مع الكلمـات مـن فمي:

– لن أسمح لأي إنسان بإهانة أقدس ما في العمر.

نفد صبره، وبلع ريقه وسألني:

– أقدس من في العمر. من هي؟

قلت له:

- الإنسانة.

قاطعني:

- المرأة؟

قلت له:

- الإنسانة التي أغرقتها.

سألني من جديد:

- أين ومتى؟!

قال إن كل جريمة لابد لها من زمان تحدث خلاله. ومكان تجري فيه.

قلت له:

- في النيل، ومنذ حوالي ساعة على الأكثر.

وقف الضابط، سوّى ملابسه، وضع الكاب فوق رأسه، وجمع علبة السجائر والكبريت والأقلام، أخذ سلسلة مفاتيحه الذهبية، والتي كان بريقها هو الأمر الوحيد المؤكد في المكان كله، وأغلق خزينة وراء ظهره، ثم أغلق بالمفتاح درج مكتبه بعد أن وضع فيه السجائر والكبريت والأقلام.

لم تكن تبدو عليه الرغبة في تصديقي، طلب جنديا ووشوش في أذنه ببضع كلمات، فانتصب الجندي في وقفته وهو يسمع كلمات الضابط. وعندما بدا أن الضابط يهم بالانصراف، فهمت أنه ترك حراسة عليّ خوفا من أن أهرب.

استأذن الضابط مني باحترام مبالغ فيه، ذهب وعاد بعد قليل ومعه ضابط أصغر منه سنا وأقل رتبة، وشخص آخر أنيق ونظيف يرتدي ملابس مدنية. وكانوا جميعا حول ضابط كبير.

اقترب الضابط الكبير مني، ربت على كتفي، ونظر إليّ الشخص الذي كان يرتدي الملابس المدنية، بدأت نظراته من شعر رأسي ووصلت حتى قدمي، كان ينظر بعناية وببطء وبهدوء.

قال الضابط، الذي كان معي، وذهب وعاد بهم.

- "إحكي لنا يا بني".

وقبل أن أبدأ في الحديث حذرني:

- لا تنس أنك في قسم شرطة، وأن العبث هنا مرفوض.

بحثت عن أول الكلمات ولكن الضابط عاد إلى الحديث الذي كان أقرب إلى صيغة التحذير:

- نحن نتكلم الآن على شكل محضر رسمي.

قال بعد فترة:

- هذا لمجرد لفت نظرك.

أعدت قول حكايتي من جديد، أضفت بعض التفاصيل الصغيرة. استغربت - أثناء الحكاية - لأن أحدا منهم لم يوجه لي أي سؤال. فقط لمحت الشخص الأنيق، والذي يرتدي الملابس المدنية والذي عرفت فيما بعد، أنه ضابط المباحث، وهو يشير لرأسه بيده ويحرك يديه حركةً غريبة.

وقد تصورت أنه ربما يعاني من الصداع، فتوقفت عن إكمال الحكاية، ووصفت له عشرةَ أنواع من الحبوب التي تذهب بالصداع فورا. ولكنه بدلا من أن يشكرني، طلب مني إكمال الحكاية.

سألني الضابط، بعد أن انتهيت من حكايتي:

- إذن أنت مُصِرٌ على أقوالك؟!

قلت له:

- كل الإصرار.

تركوني في حراسة الجندي وخرجوا، ولأن الصالة التي خرجوا إليها كانت قريبة من الغرفة التي كنت أقف فيها، ولأنهم كانوا يتكلمون بصوت عال، فقد سمعت ما قالوه. الضابط الذي استقبلني في البداية، قال لهم، وهم يتداولون في الأمر، وهم يتمشون في الصالة، إنه لم ترد أي إشارة من أي جهة عن أي حادث.

والضابط الأنيق، الذي كان يرتدي الملابس المدنية، قال إن هذه الحكاية كلها، ملفقة وهي محاولة للتغطية على أمر آخر، أكثر خطورة، أو أنها مجرد محاولة مني لإثبات وجودي هنا في هذا المكان بالذات. وربما كان الهدف هو شغلنا – يقصد شغلهم طبعا – بهذه الأمور عن قضايا حقيقية وخطيرة وأكثر أهمية تحدث الآن. تساءل: ألا يعتقد أن يكون هذا الشخص من المعارضة وأن القصة كلها من تأليفي؟

سألت العسكري الذي كان يقف لحراستي، عن حكاية المعارضة، فقال إن كل دوره هو منعي من الهروب فقط، وأما الأسئلة والإجابات فهي مع حضرات البهوات والبشوات الضباط. سألته عن الفارق بين البيك والباشا، فقال إن الضابط من رتبة ملازم حتى رتبة مقدم يقال لهم بيك، ومن

عقيد حتى عميد يقال لهم باشا، أما اللواءات الذين في العلالي فيقال لهم معالي الباشا. ولأنني كنت أستمع إلى التصنيفات والرتب من العسكري، التقطت أذناي كلمتي"أحزاب المعارضة" فأدركت أن البلد فيها الآن أحزاب كثيرة.

وقبل أن أقول له، إن ما قمت به لا علاقة له بهذه الأمور، عاد الضابط يسألني:

- قلت إن المرأة زوجة من؟

جاء ردي فورا:

- زوجة مهندس الري.

نظر الضابط الكبير، إلى الضابط الذي استقبلني، وقال له بلهجة قريبة من الأمر.

- أمامنا أول الخيط، استدع فورا مهندس الري.

تحركت سيارة من فناء القسم، ركبها مع السائق جندي يرتدي بدلة خضراء، يختلف لونها عن لون باقي بدل الجنود الآخرين الكاكية اللون.

قلت لنفسي، إنهم اهتموا أخيرا بقضيتي، وأخذوا الأمر على محمل الجد، أحضروا لي مقعدا وعرضوا عليَّ الجلوس، ولكني لم أستطع الجلوس. كنت قلقا. أتمنى أن

ينتهي الأمر بسرعة. وعلى الرغم من عودة الجندي سريعا، إلا أن الوقت الذي استغرقه في الذهاب والعودة، بدا لي طويلا وبدون نهاية.

وقف الجندي أمام الضابط، وقبل أن يتكلم الجندي.

سأله الضابط:

- أين مهندس الري؟!

أجاب الجندي:

- رفض الحضور.

إذن هناك فعلا مهندس ري، موجود الآن في الفيللا، وهذا الجندي ذهب إليه وعاد، محبوبتي متزوجة إذن، وما قاله صديقي في المدينة الكبيرة صحيح، ولكن هل يعقل أن الجندي ذهب إليه وعاد؟ كيف عبر النهر؟، إن القارب موجود الآن في الجزيرة ولا يمكن إعادته إلا في حالة عبور المهندس النهر من الجزيرة إلى بر الناس، لا توجد وسيلة اتصال مع الجزيرة، لا تليفون ولا لاسلكي، فكيف ذهب وعبر وسأل وعاد؟!

من الصعب تصديق ما يقوله العسكري.

قال الضابط بحدة:

- هل سابت البلد؟

قال له الجندي:

- أكد الرجل أن زوجته غرقت في النهر منذ أعوام وهو لا يحب فتح الدفاتر القديمة.

غرقت زوجته في النهر منذ سنوات، هل هذا معقول؟ كانت أرض الجزيرة دسمة، ولم يكن هناك من يأكل من دسمها، وكان الدسم طبقات فوق وجه الأرض.

الفجر، فجر اليوم الذي حضرت فيه إلى هنا. كانت أصوات المؤذنين، تملأ كل الفضاءات جيئة ورواحا، غرقت زوجة الرجل منذ سنوات. وفي النهر، هذا النهر بالذات، وقسمات الجزيرة فيها ذلك الجمال الذي لا ينضب أبداً.

غرقت محبوبتي منذ سنوات، وفي قلب النهر، وغرقت محبوبتي نفسها منذ ساعة ونصف بين يدي في النهر نفسه، وفيللا محبوبتي جدرانها كالورقة. الورق المعد لكي نكتب عليه ونرسم فوق وجهه، والجزيرة كلها تعود إلى نفسها لحظة انتصاف الليل، إن الوجه الآخر لمنتصف الليل يبدأ عندما تجلس الجزيرة على حافة النهر لكي تنصت لما تقوله المياه.

غرقت محبوبتي، محبوبتي غرقت، والفقراء في هذا البلد كثيرون، ولا يمكن نسيان نظرات عيونهم المحرومة أبدًا. وفي هذه المدينة تطاردني وجوه النساء المسنات اللاتي يبعن الفاكهة والخضار على شاطئ النهر. ملامح ريفية متعبة، الوجوه مثل الأرض، والتجاعيد فيها مثل خطوط الزراعات والقنوات والمصارف والترع.

زوال النهار، وشقشقة الصباح الخارج من رحم الليل، وحر الظهر الذي لا يطاق، والنسمات التي تعبر النهر وتصل إلى الشواطئ محملة بروائح الماء. للغروب رائحته، ولليل صمته الغويط، وللنهار أصواته الملوثة، ولضوء الشمس الذي لا يرحم غباره الكثيف.

ارتفع صوت المؤذن، ربما كان أذان العصر، انطلق الصوت في الفضاء الرحب وتجلّى، أعطى المدينة الصغيرة طعماً خاصاً، افتقدته فترة من الوقت، وعلى حبال صوت المؤذن الرائبة شعرت فقط أنني عدت.

سأل الضابط الجندي:

– ومن يثبت أنها غرقت في النهر منذ سنوات؟

قدم الجندي للضابط، ورقة قال إن فيها تاريخ الغرق ورقم المحضر الذي حرر به ورقم تقرير فرقة الإنقاذ النهري التي شاركت في البحث عن جثمان الغريقة.

أحضروا ضابطاً قديماً في القسم، كان على وشك الانصراف إلى بيته. سألوه فأكد الواقعة، وتجولت الدموع في عينيه وهو يتحدث عن جمال الغريقة ورقتها وعذوبتها. وأكد أن النهر اختارها عروساً له في العام الذي غرقت فيه، بعد أن ضنت البلاد عليه بعروس، إنه - أي النهر - اختارها بالذات لأنها أجمل إنسانة على وجه الأرض كلها.

كنت أستمع إلى هذا الكلام، وبرج من عقلي على وشك أن يطير. لم أصدق حرفاً واحداً مما قالوه، وانتابتني حالة غريبة من الإصرار على كلامي. والضابط - الذي كان يتصور أنه انتهى من الأمر على خير - أوشك أن يجن، طلب من الجندي إحضار المحضر والأوراق التي تثبت واقعة الغرق منذ سنوات، ورجاني قراءتها بنفسي.

رفضت القراءة، قلت إنني متأكد مما فعلته اليوم، فبدأ هو يقرأ بصوت عال، لكي يسمعني ما يقرأه. قرأ إنها نزلت ظهر اليوم الذي غرقت فيه إلى المكان المقابل للشادوف

ودرجات السلم البيضاء المكونة من الأحجار، همست لنفسي إنه نفس المكان الذي غرقت فيه اليوم.

كان القارب مربوطاً بحبل في وتد بالشاطئ وكانت المرة الأولى التي يستخدم فيها القارب وكانت أيضاً الأخيرة. قلت لنفسي: إنها لم تكن المرة الأخيرة، لأنني استخدمت نفس القارب صباح اليوم.

كان القارب بدون مجدافين، ولذلك اتجهت الزوجة إلى مكان تحت شجرة عجوز وأحضرت المجدافين، نفضت عنهما التراب والعنكبوت، وأعطتهما لزوجها لكي يركبهما في القارب. ركبَّهما وسحب القارب الذي كان ملتصقاً بالشاطئ. مدّ الزوج يده للزوجة لكي تركب معه ولكنها تراجعت في اللحظة التي همت فيها بركوب القارب. قالت إنها نسيت الدفة. ثم إنها ذهبت إلى الجزيرة وعادت ومعها الدفة وتعاونت هي وزوجها في تركيبها.

وعندما حاول الزوج تحريك القارب كان ذلك صعبا، فأحضرت له عصا كانت محاطة بالطين وفي الطين نبتت بعض الزراعات الصغيرة. وشرحت له كيفية استخدام العصا لكي يحرك القارب.

جلس الزوج في النصف الأمامي، من القارب وجلست الزوجة في النصف الخلفي من القارب، أمسك الزوج بالمجدافين، وأمسكت الزوجة بالدفة.

كنت أستمع إلى الوصف، وأنا في حالة من الذهول، فهذا بالضبط ما جرى معي.

ثم حدث – أكمل الضابط القراءة – أن شعرت الزوجة بالعطش، بعد أن لفا ودارا حول الجزيرة أكثر من مرة، ولأن الزوج لم يأخذ معه مياها للشرب في القارب، توقف الزوج عن التجديف، وأصبحت المياه تعبث بالقارب، لم تستطع الزوجة أن تصل بفمها إلى المياه.

مدت يديها، تحاول رفع مياه النهر بهما إلى فمها، ولكن في المرة الأولى، تسربت المياه من بين أصابع يديها في المسافة من النهر وحتى وجهها. اقتربت الزوجة أكثر من حافة القارب، وحاولت أن تشرب بفمها من النهر مباشرة.

اختل توازنها ومال القارب، فسقطت برأسها مباشرة إلى قلب النهر، ولأن الزوج لا يعرف العوم، فقد اكتفى بالجلوس في انتظار أن تخرج الزوجة من النهر، وعندما ملّ

الانتظار، توجه إلى قسم الشرطة لكي يحرر محضرا بالحادث.

قال لي الضابط القديم، الذي عاصر الحادث، إنه حتى الآن، لم يتمكن أحد من إخراج جثة الغريقة من الماء. حضرت فرق الإنقاذ النهري والضفادع البشرية، ومسحوا النهر في المنطقة كلها، وتتبعوا التيار وتوقفوا تحت الكباري وفي المنحنيات في النهر من الجزيرة – حيث مكان الغرق – وحتى المصب.

قيد الحادث رسمياً في أوراق الحكومة، على أنها مفقودة، ومازال الوضع هكذا حتى الآن.

سألت:

– ومن شاهدها وهي تغرق؟!

قال الضابط القديم:

– أولاً اعتراف زوجها، ثم هناك شهادة أحد حراس السجن في الضفة الغربية للنهر.

قال لي إنهم وجدوا بالقرب من مرسى القارب فردة من شبشبها الذي كان في لون دم الغزال، وإن زوجها تعرف على الفردة، وإن كانت الفردة الأخرى مازالت مفقودة حتى

الآن، وإن العلامات التي وجدت في باب الفيللا وحتى مرسى القارب مطابقة تماما لفردة الشبشب الذي وجدوه.

سألت عن أولادها ومصيرهم بعد الحادث. وجاءت مفاجأة جديدة، في سلسلة المفاجآت الغريبة، عندما قال لي الضابط القديم، إنها لم تنجب أبدا، لم يعط بطنها أي ثمار، كانت كالنخلة الذكر والشجر العاقر. جاءت وعاشت ومضت وهي كالأرض التي لم يشقها سن محراث. بطن أرض لم تبذر فيها البذور، ولم توضع فيها التقاوي، والمياه الخصبة لم تروها مع أنها تحضنها من كل الجهات.

لم يعرف أحد – حتى ضباط الشرطة الذين يدسون أنوفهم في كل أمور الحياة – من الذي فيه العيب، الذي أدى إلى عدم الإنجاب، هي أم زوجها؟ ولكن كل من عرفها أو شاهدها، قال إنها امرأة ولود، كان يمكنها أن تملأ البر كله بالرجال والنساء.

سألت عنه، عن زوجها، الذي سرقها وهي في زمن انتظاري. قالوا إنهم سمعوا أنه مازال في انتظار عودتها حتى الآن، وأن الفارق بين الغريق والمفقود أن المفقود قد يعود ذات يوم.

كنت مصرا، رغم كل ما سمعته على أقوالي. طلبت من الضابط أن يدونها في محضر رسمي، وأن يذهب معي إلى هناك، حتى أمثل كيف جرى الأمر على الطبيعة، حتى يقتنع أن ما أقوله قد جرى فعلا.

رفض الضابط وأصر على رفضه، فطلبت عرضي على المأمور، وعندما ذهبنا إليه قال حلا وسطا، أن يذهب جندي إلى الجزيرة لكي يعاين الأمر على الطبيعة لأن ذهابي صعب وزوجها هناك.

ذهب الجندي وعاد.

قل إن القارب ليست له مجدافين ولا دفة، أما قارب العبور فهو مربوط في جنزير غليظ من الحديد من جانبيه من المستحيل فكه، وأنه يربط بقفل عند رسوه في بر الناس أو في الجزيرة خوفا من أن يحركه أحد، فيفسد برنامج مهندس الري المحسوب بكل دقة.

كنت أدرك كذب هذا الكلام، فلم يكن في جنزير القارب أي قفل، عبرت به اليوم مرتين، مرة إلى الجزيرة، والأخرى إلى بر الناس، فكرت أن أكذب العسكري الذي

ذهب وعاد محشوا بكل هذه الأكاذيب، ولكني شعرت بحالة من الكسل اللذيذ وفضلت الصمت.

قال الجندي إن القارب لم يتحرك من مكانه اليوم، منذ أن حضر به المهندس، وإلى أن عاد به إلى الجزيرة.

كان الجندي يتكلم، وكنت أحلق في سابع سماء بعد أن عبرت السموات الست بيسر وسهولة. لو فاض النهر لشفي المرضى وبعث الموتى وغسلت الضحكات الصافية قلق الوجوه، ولعن الناس الفلسفة كافة. لو فاض النهر لأبصر الأعمى، وسمع الأصم، ونطق الأخرس وأنجبت العاقر، ولضاقت المسافة بين الذين يموتون من الجوع والذين يموتون من التخمة، ولتطهر النهر واغتسل البر كله وانتهى الدنس من أرض الوادي، ولأثمرت الصحاري، وقال باطنها، وحكى وتكلم عن أسراره الكثيرة لو فاض النهر، وآه من كلمة لو هذه.

كنت أحلق، ولكني ما إن سمعت الجندي يقول إنه وجد أوراقي في القارب حتى صحت في ذهول، إذن هذا هو الدليل الذي يثبت كل ما قلته. أنا صادق في كل ما رويته،

وطلبت تنفيذ القانون فورا. ولكن الضابط قال إن وجود هذه الأوراق في القارب لا يرقى إلى مستوى القرينة.

والعسكري الذي ذهب إلى الجزيرة قال إنه يوجد في الجزيرة قارب واحد هو قارب العبور، وإن قارب الفسحات الحر الطليق، الذي ادعيتُ أنه كان موجودا وأنني ركبته مع زوجة المهندس، هذا القارب لا وجود له. منذ أن غرقت فيه زوجة المهندس منذ سنوات، وهذا القارب موجود ولكن على الأرض، وهو مقلوب على وجهه وبه أكثر من ثقب، وأن خشبه قد تآكل من الهواء ومن ماء المطر، وأن قاعه مثل الغربال وأنه من الصعب أن يطفو على الماء ولو لمسافة قصيرة.

رفضت تصديق هذا الكلام.

عدت إلى التحليق، ليقولوا ما شاءوا، ليحكوا الأمر بالصورة التي تريحهم، ولكني لن أصدق حرفا واحدا مما يقولونه، محبوبتي كانت معي صباح اليوم. الجنون بعينه هو ما يدعونه، مجنون من يصدقهم، ولن أكون مجنونا حتى تصل كلماتهم إلي.

قال لي الضابط، إن ما أفعلــه الآن اســمه إزعــاج السلطات بدون مبرر، وهو يعطيني الفرصة للانصراف من هنا، وإلا فإن مصيري قد يكون صعبا.

لم تخطر علي بالى فكرة الانصراف. طلبت مهلة من الوقت لكي أفكر في الأمر، خلدت إلى نفسي، وسمعت صوت الجندي الذي ذهب إلى جزيرة محبوبتي، يقول لزميله، يبــدو أن مهندس الري "مخاوي"، وأنه لذلك سعيد بالإقامة بمفــرده في جزيرة موحشة حولها الماء من كل جانب، ولا يوصــله بدنيا الناس أي وسيلة للاتصال وربما كانت زوجتــه التــي غرقت منذ سنوات تخرج له كل ليلة على شكل جنيِّة ويحدث الاتصال، وتعود لحظة الفجر الرمادية إلى قلب الماء.

رد عليه الجندي الذي لم يــذهب، قــال: يبــدو أن الأفندي الغريب يريد مشاركته في لحظات الوصــال هــذه. ومن أجلها يدعي أنه أغرق الزوجة كذبا.

فكَّرت في حالي، رفضت الانصراف مــن القســم، قررت الإصرار على أقوالي طوال مراحل التحقيــق كلهــا، وفي المحكمة، سأطلب من القاضي، قبل أن ينطق بالحكم أن

أنفذ مدة السجن التي سيحكم عليَّ بها في السجن القريب من النهر. أقصد سجن الضفة الغربية للنهر.

انتشر بداخلي يقين غريب، أن محبوبتي لابد وأن تطلع ذات يوم من النهر، لكي تخرجني من سجني.

سألني الضابط من جديد:

- مُصِرٌ على أقوالك؟

وقبل أن أرد بالكلمات التي كانت على طرف لساني قال لي الضابط موضحا:

- هذه آخر فرص التراجع.

قلت له:

- مُصِرٌ على أقوالي.

أخذني إلى المأمور، والمأمور حوّلني إلى وكيل النيابة وجلسوا في مواجهتي، الضابط الذي كان في استقبالي وقد عرفت الآن فقط أنه الضابط النوبتجي، والضابط القديم، الذي عاصر غرق محبوبتي الوهمي، والذي قرر البقاء وعدم العودة إلى البيت في موعده اليومي، لأن في الموضوع إثارة، وأنه يهمه معرفة نهايات الأمر، والمأمور ووكيل

النيابة الذي كان مكتبه فوق القسم وضابط المباحث الأنيق، الذي يرتدي الملابس النظيفة.

كان السؤال الأول:

- في أي الأيام نحن؟!

سألني عن الشهر الذي نحن فيه، وأين تقع جهة الشمال؟ وجهة الجنوب؟ وجهة الغرب؟ وجهة الشرق؟ وأين الضفة الشرقية والضفة الغربية للنهر؟ وما هو الفارق بين النهر الشرقي والنهر الغربي؟ وأين هي الأرض؟ وأين هي السماء وماذا يفصل بينهما؟

ولأن إجاباتي كانت دقيقة، تهامس الضابط بأن الأمر محير، ورجاني وكيل النيابة - للمرة بعد الأخيرة - هكذا قال. وقد أعجبني التعبير، فرددته بيني وبين نفسي أكثر من مرة. رجاني أن أنصرف من مبنى سراي النيابة - يقصد مكتبه فوق القسم - ومن المركز، ولكني رفضت الانصراف؛ فبدأت حالة من الهمس والوشوشة، والذي بدأ الهمس والوشوشة كان وكيل النيابة، همس في أذن المأمور، والمأمور وشوش الضابط الذي كان في استقبالي، وأشار بيده لضابط المباحث، إشارات يبدو أنها متفق عليها بينهم.

عدت مع الضابط النوبتجي إلى غرفة النوبتجية، واكتشفت أنها مكتوب عليها اسمه. وأن فوق مكتب الضابط لافتة مكتوب عليها أن هذا هو الضابط النوبتجي، وإنني لم أقرأ اللافتتين عند حضوري لانشغالي الشديد وحالة الكرب والهم التي أعاني منها.

ما إن وقفت في منتصف الغرفة حتى سألني:

- أين بطاقتك الشخصية؟!

قلت إنني لا أحمل أي بطاقة، معي فقط جواز سفري ولكنه في البيت، أبدى الضابط دهشته. قال إن جواز السفر لا يستخدم إلا خارج البلاد. وأنا الآن في داخل الوطن ومفروض أن أستخدم البطاقة، قلت إن بطاقتي فقدت منذ سنوات، وإنني استعمل جواز السفر لأنني عائد من الخارج مساء أمس فقط بعد سنوات طويلة من الاغتراب.

فتح الضابط النوبتجي محضرا طويلا، كتب كل أقوالي التي أدليت بها، طلب مني التوقيع على الأوراق فوقعت دون أن أقرأ كلمة واحدة.

نظر إلي الضابط، كان متعبا وحبات العرق تجمعت فوق جبهته. قال لي إنني سأبقى في الحجز لحين عرض

الأوراق بصورة رسمية على النيابة، لكي تحولني إلى الكشف الطبي لتقرير مدى سلامة قواي العقلية.

- من الآن تغير الموقف.

قال لي الضابط، إنه منذ دخولي مكتب وكيل النيابة فليس من حق أحد التصرف في حالتي سوى النيابة، وكيل النيابة هو الذي يملك الإفراج عني، أو انتظار تقرير الطبيب أو تحويلي إلى مستشفى الأمراض العقلية.

سألت الضابط.

- وهل يوجد مستشفى للأمراض العقلية قريب من النهر أو الجزيرة؟!

بان الخوف على وجه الضابط، يبدو أنه صدق أنني مجنون. سألني عن السبب، فقلت له إنني على موعد مع النهر ومحبوبتي من أجل خير البلاد.

قال لي بلهجة جديدة تخلو، من الإنسانية:

- لا يوجد مستشفى أمراض عقلية هنا.

قال لي، وهو يحاول الهروب من أمامي، بعد أن لصق ابتسامة صناعية على شفتيه، إنه يوجد مستشفى

أمراض عقلية وحيد في العباسية، وعليَّ أن أستعد من الآن للرحيل إليها.

نظرت من النافذة، لم تكن في ذهني ذكريات سعيدة حتى أستعيدها، كنت أبحث عن النهر والجزيرة، هل يمكن رؤيتهما من هذا المكان. يبدو أن الضابط تصور أنني أفكر في الهروب.

فقال لي:

– عرضت عليك المشي أكثر من مرة قبل أن تصبح الحكاية جدًّا.

لم يدرك الضابط، أنني كنتَ أبحث عن النيل وعن جزيرة محبوبتي، ولكن النيل كان بعيدا جدا. خرج الضابط، صعد إلى الدور الأعلى، وبرز من باب الغرفة جندي، فنظرت إلى الشرفة فوجدت جنديا يبدو أنه زرع الآن فقط فيها. نظرت من النافذة فطالعتني فوهة بندقية معلقة في كتف جندي.

تذكرت إنني لم أعرف من المحضر الذي كان يقرأ فيه الضابط، وصف حادث الغرق الوهمي، والذي لم يحدث سوى في خيالهم، والذي يقولون إنه وقع منذ سنوات. لم

أعرف من المحضر اسم التي غرقت، زوجة المهندس. قلت لنفسي، ربما كانت التي غرقت زوجة مهندس الري فعلا ولكنها ليست محبوبتي.

سألت نفسي: هل يمكن معرفة الاسم؟ هل أحصل على هذا اليقين الأخير؟ ولأنني أدركت صعوبة معرفة الاسم بعد أن تطور الأمر بهذه الصورة، كبست عليَّ حالة من الحزن لا يمكن وصفها بالكلمات، وشعرت باشتياق لا حدود له لدمعة واحدة تنحدر على خدي.

نظرت من النافذة، كاد وجهي أن يصطدم بفوهة بندقية الجندي. وكان هناك جنود آخرون يقفون في الشارع، وكان الهواء معطراً، ولم تكن فيه رائحة الماء فحزنت. ورغم الحزن، كان لدي يقين وحيد. لابد من لقاء محبوبتي ولا مفر من فيضان النيل. قلت لنفسي: لابد، لا مفر.

القاهرة: مدينة نصر

الأربعاء ٢٥ سبتمبر، أيلول، ١٩٨٥